

كتاب اليوم

امرأة يونانيو

سكينة فؤاد



سكينة فؤاد



قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سمده

رئيس التحرير :

نبيل أباطة

توزيع دار الفكر

الهيئة
892 73
1
892 73

□ عدد فبراير ١٩٩٨ □

أسعار كتاب اليوم في الخارج

الجمهورية العظمى	٢ دينار
المغرب	٢٠ درهم
ليبيا	٤٥٠٠ ليرة
الأردن	٢٠٠٠ فلس
العراق	٧٠٠٠ فلس
الكويت	١,٥ دينار
السعودية	١٢ ريالاً
السودان	٣٢٠٠ قرش
تونس	٢ دينار
الجزائر	١٧٥٠ سنتا
سوريا	١٢٥ ل. س
الحبشة	٦٠٠ سنت
البحرين	١,٢٥٠ دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠ ريال
غزة	٢,٥٠٠ دولار
ج. اليمينية	١٥٠ ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠ بى
السنگال	٦٠ فرنكا
الإمارات	١٢ درهماً
قطر	١٢ ريالاً
انجلترا	٢ جك
فرنسا	١٠ فرنكات
ألمانيا	١٠ ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
هولندا	٥ فلورين
باكستان	٣٥ ليرة
سويسرا	٤ فرنكات
اليونان	١٠٠ دراخمة
النمسا	٤٠ شلن
الدنمارك	١٥ كرون
السويد	١٥ كرون
الهند	٣٥٠ روبية
كندا - أمريكا	٣٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠ سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠ سنت
استراليا	٤٠٠ سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيهاً مصرياً

● البريد الجوي ●

- دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولاراً
- اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولاراً
- أوروبا وأمريكا ٣٥ دولاراً
- أمريكا الجنوبية واليابان وأستراليا ٤٥ دولاراً
- أمريكا أو ما يعادلها
- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى الاشتراكات

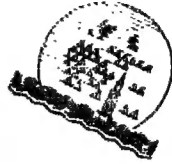
٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٧٨٢٧٠٠ هـ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تليكس دولى : ٣٠٣٢١٠

● تليكس محلى : ٢٨٢



امرأة يونيو

بقلم

سكينة فؤاد

الأخراج الضنى :

مجدى حجازى

الغلاف بريشة :

عمرو فهمى

امـــــرأة

يونيـــــو

الزوال

(١)

نادت على السمكة وقالت :

أنا التمساح الذى يحيط به الرعب .. أنا
التمساح المقدس الذى لا يهلك . أنا السمك العظيم
من قمر . تحت الماء وفوق الأرض أتتنفس وأشرب وفى الليل
يسكننى حابى وفى النهار يتدفق .. أنا السيدة من جبل
حلوان وأخرجت السمكة رأسها من الماء وألقت عليها تحية
الصباح فانزلت إليها مع جرف النهر ولامست ظهرها فذابت
السمكة وتلاشت فى الماء .. سألتها من الرحمة أم من
التعويذة التى سمعتها منى وأنا قادمة أؤنس الجبل وأبدد
الوحشة .. اسمعى علقت الأوشابتي فى صدرى .. لا بد أنها
منهم لا أعرف كيف جاءت وسط أقلامى وألوانى هذا من زمن
ولكن لا شيء بلا معنى وسأعرف يوماً . واحدة منا قالت
للثانية احملى معى كل الصعاب واشتدى .. حرث الحقول
وغمر القنوات بالماء ونثر الحب من الشلال للبحر وحمل
الرمال من الشرق للغرب .

أفرغت ما امتلأ به حذاؤها من رمال وحصى - تسكن حيث لا
يوجد فى المدى إلا الجبل - أرجع الوسع أصداد مأثورة جديدة
من التى اعتادت أن ترددها بصوت تسمعه لنفسها لتستدعى

للمعانى صورها وترسم ما يتراءى لها فى لحظة صفاء وفرحة
وتجل - ضحكت من قلبها - لابد أنها ماتت عندما سمعتها تلك
الذئاب التى أصبحت تتزوج الثعالب وتنجب السلعوات .

استرجعت آخر ما حفظت من كتاب الموتى. فربما صدى
صوتها فى وسع الصمت ينادى خيالاتها لتخصب رسومها فلا
يكف عقلها عن ميلان أفكار جديدة

(هاليا من خطوتك واسعة .. يا من أتيت من « أنو » إنى
لم أسبب ألما ولم أتسبب فى بكاء ولم أغش وأسبب خراب
الأرض المحروثة .

هلا .. يا صاحب الأنف يا ملتهم الظلام - يا من أتيت من
موضع الأسرار - رب العدل والحق إنى لم ارتكب إثما ولم
ارتكب الفحش ولم أصم أذننى عن كلمات الحق والعدل ولم
انقض مكيال القمح ولم ألوث أبدا المياه .

هلا وأنا أحرث وأبذر وأسقى وأطرح الثمر نما فى مكان
الذراع والقلب والأنف والعين والعقل ألف .

هلا .. لم تعد الملتهم وحدك .. تجاوزت بالشدة الأبواب
وعبرت - أصبحت مثلك ملتهم الموت والخوف .

(وهى تنفض ثوبها لتصعد جرف النهر كانت جيوش النور
مازالت تتقدم وسيارة الركاب الكبيرة فى موقعها تتنأى وأحلى
ما فى السكن المسافرين فى جوف الصحراء أنها تحصل على
السيارة فارغة قبل أن تفقد مواقع رأسها وأقدامها فى قلب عجين
اللحم القادم فى مشوارها اليومى إلى مدرستها بعين شمس .
وبعد انتهاء حصصها تركب إلى المكتبات التى تتبعها لوحات
البردى التى ترسم فوقها خرطوشتين واحدة تحمل عبارة
مرسومة برسومها الهيروغليفية والثانية برسوم مشابهة ولكن

من الحروف العربية لنفس العبارة أو تذهب إلى القرية الفرعونية لتشتري مخزونا جديدا من أوراق البردى التى تحتاجها رسومها . لكن أحلى مشاويرها إلى مكتبة عامة تجدد رصيدها من الحكم والمأثورات الفرعونية اكتشفتها بعد أن وقعت فى الأسر .. أصبح فنها مزاجا وإدمانا قد يشدها إلى الصباح ساهرة وقد يسرق معه النهار لو لم تنتبه لإيقاظ زوجها وابنتها .. تتركهما يجهزان أمورهما فالمصنع والمدرسة الابتدائية فى حى السكن وتنطلق هى لجنونها ومشاغبتها للعالم الواسع التى لا تعرف من يسكن من .

(تعودت إعادة ترديد واستجلاء مشاهد المقاطع التى تحبها وتكثر من رسمها

أنا شجرة الجميز المقدسة .. أحتضن الماء والهواء بداخلى وأنمو للسماء وتضرب جذورى فى مركز الأرض من يستطيع أن يقتلعنى ..

إنها تنمو .. وأنا أنمو

إنها تعيش .. وأنا أعيش

تستنشق الهواء .. وأستنشق

تشرب النهر .. حتى تمثلىء جذورى ..

ومن وسط ظلمة التربة يولد الشجر .

(تعلمت أو اعتادت أو اعتقدت أنها لابد أن تدرب صدرها على تحويز هواء الفجر والصباح المبكر الذى لابد اغتسل وتوضأ وصلى قبل أن يطل .. صاحبت على السمكة : « لو عرفت كيف تصبحين جميلة مقدسة لتبدلت الخياشيم رثات . هلا يا من حرثت ورويت وأخلصت .. لك ما زرعت وأردت » .. بعد أن شربت كل الهواء حولها - حسبت لنفسها على «ساعتها الصغيرة

الدقائق التى تزيدها كل يوم فى وسع صدرها وقدرته على التحويش .. بعد قليل لا يجد الهواء ثقباً ينفذ منه إليها داخل العجين حيث تتخمر وتقرص وترص وتدخل الفرن لتتضج ولا تحترق أبداً .

(٢)

وهى تغادره تغادر الأشجار مواقعها وتندفع فى أعقابها تثير عاصفة من التراب الأسود تتجمع فى صدرها وتسد قصبته الهوائية .. تهول حتى لا يلحقها المردة الذين كانوا أشجاراً .. طوال عمرها تحب الخضرة وتفزع إليها لتطيب روحها وتطمئن وتهدأ .

كيف أصبحت الأشجار قضباناً للسجين النائم وراءها ولها وهى تغادره فى فرار تتمنى أن يكون من وجودها كله .. عند البوابة الخارجية لدار الاستشفاء النفسى تنتهى قدرة الصمود ويستحيل ألا تفرغ ما لم يدخل جوفها .. تطل عليها عيون الشبح الفائرة من مرآة سيارتها فتديرها بعيداً عنها .. لا تنتبه أنها تقود مغمضة العينين إلا وصيحات السيارات المتدفعة حولها تتسرب من نوافذها المغلقة .. تحكم إغلاق الزجاج أكثر وتستسلم للاختناق فى عنق الزجاجاة الضيق عند مطلع كوبرى ٦ أكتوبر .. تحكم إغلاق عينيها حتى لا ترى المشهد المتكرر لمئات العيون الزائفة والغاضبة والمتصارعة على الصعود البطيء والمميت .. ولا بد من حادثة يكتمل بها الاختناق ويستعصى حتى الزحف وإيجاد مبرر لاشتباك مميت ينتظر بجنون سبباً يسمح بإطلاق ما فى الصدور .. وتستسلم لمشهدا المعتاد وتغلق رأسها بكفيها تحسباً لانفجارها تحت الدق والضغط الذى قد يتصاعد لنوبة من

■ الزلزال ■

نوبات الدوار التى فشلت جميع أنواع الحبوب فى إسكاتها أو إعادة الأرض والسماء والجدران والبشر إلى أماكنهم ما لم تنته النوبة .

حاول الطبيب أن يذهب معها إلى أبعد مدى تستطيع أن تستحضره من حفريات وجودها للعثور على نقطة البداية مع زلزالها .. حكى ما يحكى وأخفت فى الظلام ثلاثة أرباع هذا الوجود ولم تكن تريد من الطبيب أكثر من حبوب تجعلها بلهاء وتخد مناطق اليقظة واللهفة والحرارة والصدق والرغبات والانفعالات وكل ما شقت به وتحيلها مخلوقا سلبيا مستسلما ومتجملا بالصبر العاجز .. لم تعد تصدق أن الإمساك بالعقدة النفسية ينهيها .. فقد أمسكتها وأوجعتها والتفت الأيام حول رقبتها وبدأ الخلاص الوحيد فى الاستسلام لها .

أعطى الطبيب ما يكفيه من أسباب لإصابته بحالة متكاملة من التوتر والاكتئاب وأخذت الحبوب التى أعطتها فترات سكون وإن أسقطتها فى نوبات نوم مفزع ويقظة غائبة .. فألقت الحبوب واستسلمت للصداع ولنوبات الزلزال وتوافقت أن تتعايش معه ووجدت عندها من الأسباب ما يجعل حدوثه نتيجة طبيعية للمتوافر لديها من مقدمات .. فالبدايات الطموح انطفأت والحماس المجنون للحياة أوقعها فى وهم الحب قبل أن ينمو لها عقل تتحسس به الدنيا وتزوجته بمقاييس طفولتها المبهورة ببريق بذلته الرسمية وصارحته بكل أحلامها عن الكاتبة القادمة التى ستغير العالم وتصنع الأطلى والأجمل ولم تفهم إلا فيما بعد معنى ضحكته المججلة . وفيما بعد أيضا اكتشفت أنه لا يسمع إلا نفسه ولم يسمع منها كلمة واحدة وتحت عناد ألا تفشل واستسلاما للانضباط الاجتماعى ودموع وحيرة عيون صغيرة

يمزقها انفجارات الغضب حولها واصلت .. سقطت أقنعة التجمل
ومسرحيات البدايات الوردية وترك منصبه الرسمي إلى موقع
مالى كبير ووجاهة وصعود اجتماعى .

كان كل صعود له يكذب ويسقط نبوءة أبيها الذى كان بوصلة
لا تخطئ فى حكم .. وكان موت أمها المبكر وتفرغه لها وفيض
حبه وحنانه ورحمته .. وواسع قراءاته وغرقها معه فى مكتبته
الصغيرة جعله كل أهلها .. ولم تنفتح ثغرة بواباتها الموصدة إلا
لما دب الحب .. وهى تدعى أنها لا تعرف لماذا تريد والدته جارهم
الشاب أن تلتقى به .. لأول مرة ترى أباهما يصاب بحمى الغضب
ويجرح أذنيها بعبارات لم تسمعها منه فى عمرها معه وهو يصف
فارسها .. حاول أن يستخدم أرصدة محبته عندها .. لو طلب عينا
منها ولكن ألا ترتبط به هو المستحيل .

وافق وهو أقرب إلى الرفض ولم تقم لحظة سلام بين زوجها
وأبيها .. وقدر ما كان يسعددها سلامة بوصلته الهادية قدر ما
تمنت أن يخطئ فى حكمه المبدئى والنهائى على زوجها .. لو لم
يوافق .. لو قضم رقبتها وأخرج عينيها فقد أثبتت الايام أنها لم
تفتحهما أبدا وكل يوم كان إثباتا لصحة نبوءته .. ترك زوجها زيه
الرسمى وظلت الأحكام العسكرية سارية عليها وإطلاق الرصاص
على أحلامها وكل ما أمنت به لتستسلم لموقعها فى خلفية
الصورة زوجة لوجيه أمثل من وجهاء المجتمع الجدد وتستمتع
بالثروة وقصر الصحراء وشقق المدينة والسيارات الفاخرة
وشاليهات السواحل المصرية والأوربية واليخت وملكية نادى
الغوص .

أصبحت تتعامل حتى فى نفسها مع كائن آخر لا تعرفه .. كل
شئ يتبدل من مواقعه .. لم يعد باقيا من الشاب القديم الذى

عرفته إلا الضحكة المججلة - وقد علا صوتها وازداد رنين فراغه
بينما تتزايد قيمته وأهميته .. صعود زوجها المتلاحق يقابله
تراجعها وانكسارها .

صديقة صباها التي درست السياسة والاقتصاد .. فتاة
الجامعة المثالية في التفوق الرياضى والاجتماعى - والتي اختبأت
داخل خباء كامل من قمة رأسها حتى أطراف قدميها - لا شيء ولا
حتى العين يطل منها وشقت الأرض بينهما مفاهيم مختلفة عن
العالم .. فى زمن الدراسة كانت صديققتها أكثر تحررا منها ..
وكانت هى أكثر محافظة فى غير مبالغة .. كانتا تنتميان
للطبقة المتوسطة الحافظة للقيم الصانعة لمكانتها بالتعليم والعمل
والتي تطرح أوراقها الخضراء فوق إيمانية وسطية مضينة بجلال
الخشوع وطمأنينة الإيمان والقيم والالتزام - كيف تبادلنا المواقع
واتسعت هوة الفكر والرؤية بينهما - فى خطاب من الخطابات
الآخيرة وقبل أن يتسع الشق بينهما كتبت لها :

« فى البورصة الجديدة للبشر .. كل ما تربينا وعشنا عليه
يتساقط .. هو يصعد ويتعاضم وينتشر وتتضاعف الأصفار إلى
يمين أرقامه ونفوذه وسطوته ورجاله .. أشياء أخرى كثيرة ..
الأكاذيب لا تنتهى فى زمن الشفافية .. يصعد هو ولا يكف عن
الصعود وأنا أترجع كسيول منحدره من أعلى الجبل » .

لم يعترف لها أبوها أبدا أن تعاستها وتجديفها ضد التيار
لا يختلف عما حدث له فى عمله وقدر ما حاولت أن تخفى آلامها
بعيدا عنه كانت تقرا فى عينيه وقائع أيامها التى لم يبق لها إلا
بارقة أمل بغيد أن تنجو من الغرق بولديها - وقبل أن يغيب أبوها
وراء حاجز الصمت حاولت أن تسترده باستعادة بقايا ذكريات
أيام حلوة معه ودعابتهما لا تكف للدنيا ولهما .. قالت له إنها

تمنت مرة واحدة .. واحدة فقط على الله أن تضبط زوجها فى حالة تسمح لها بإثبات خطأ نبوءة أبيها .. الضحك مذبوح بالآلم .. منقوع فى المرارة .. حتى هذا لم يعد يستطيعه .. أشاح بوجهه بعيدا وقال :

- دعينا لا نقلب المواجع .. وتشبثى بنفسك وأولادك كانت تكمل لنفسها ما أشاح بوجهه حتى لا تسترسل فى قراءة صمته .. وكان الطلاق طريقا مسدودا - زوجها لا يريد خدشا للمواصفات الاجتماعية فهو من عائلة إذا أغلق الباب على الرجل وزوجته ارتبطا ارتباطا أبديا كالموت والميلاد .. وأفلت نداء من المخزون المتراكم :

- حتى لو وراء الباب المغلق تنقطع كل الصلات ! يبدو أن كل البعيد عن الواجبات ممكنا .. وانضمت أوجاع جسدها إلى أوجاع روحها وبقي الاعتبار الأول فى التصالح معه ومع الخل فى ألا يطول ولديها أكثر مما طالهما من آثار الانفجارات المتواصلة بينهما - وظلت محاكم التفتيش كما أسمت محاولاته للتدخل فيما تكتب والتقليب فى ثنايا عقلها حتى لا تمس به اعتباراته الأمنية ومصالحه المالية وعلاقاته بالبنوك واشتعل الصراع بينهما ومزق البقية من خيوط العنكبوت التى ترتبطهما وانفجر السقوط تحت أعين الولدين وتشبثت بأمل إنقاذ أخير بالعودة إلى عملها . واختارت سلسلة من التحقيقات النفسية وأخضعت ضحك التسعينات للتحليل .. قادتها الدراسة إلى نوع مستحدث يصاحب رفع الرايات والاستسلام وتطرقت بتحقيقاتها إلى الأحلام فاكشفت أن الناس لم تعد تحلم .. أو لم تعد تنام أو تنام فى الليل والنهار فلم تعد تفرق بين رؤى الليل وكوابيس النهار وخططت لسلسلة من الحوارات تفحص بها تراجيديا واقع

تحس أنه تجاوز مساحات الخيال وكل ما عثر عليه الفن من نماذج بدت له خارقة للعقل والإحساس .
فى مذكراتها سجلت اللقاءات :

● سعت للقاء أستاذ الجامعة الذى كون عصابة السرقة زملائه والطلبة الذين يدرس لهم وقدرت قيمة مسروقاته بملايين الجنيهات - لا أحد كان يصدق حتى تم الكشف .. قال إنه أراد أن يعرف التركيبة النفسية للناس الذين يسكنون هذه اللحظة الملعونة من الزمن - قرر أن يتقمص أبطاله وينزل داخل نفوسهم ويقرا المكتوب على جدرانها الداخلية .. استنجدت بكوب ماء على مائدة أمامى لأقاوم الجفاف والتحاريق التى اشتعلت فى جوفى وصلت يده إليها قبلى بخسرية طيرتها فى الهواء وكادت تطيرنى .. لم أفهم كلمة من هذيانه .. قيدوه ورفعوه من الحجرة .

● فى سجن النساء - على طريقة تهريب المخدرات سربوا لى الخبر - فى زفزانة النجوم الخمسة تنزل نسوة لهن تاريخ قادم - كلما أنجزت واحدة صفقة تدخل للاستجمام حتى يتم اللازم من غسيل للأحداث والمال والجفاف والجمع والطى والإخفاء .. من أسمائهن المستعارة هدى وصوفيا وسمية ومنى - السيدة كوامل حالة لها هواية خاصة جدا أن تصنع الأسمنت من السكر وأسياخ الحديد من عروق الحلاوة الحمراء ثم لوسى .

عشقت دراسة الأساطير فى قسم التاريخ - لم اخترقسما غيره فى بطاقة الرغبات - كان التاريخ الفرعونى جنونى تسليه أساطير الشعوب . وامرأة السجن أمامى فى بيجامتها الحريرية اكتشفت لأول مرة أن الأساطير ليست خلاصة لخيالات وأحلام الشعوب وأن هناك بالفعل سلالة للبلنت التى ولدت من رحم اللؤلؤ . لم تكمل الثلاثين - وقالوا إن ثروتها تجاوزت المليار -

وفى صالونها الفاخر تدير مملكة من العلاقات وتحرك بأطراف أصابعها خيوط مجموعة من الشخصيات الهامة وتعتقد بالإجابة عن كبار صفقات سلاح وأحجار كريمة - أظنهم قالوا - وغيرها أشياء كثيرة - على أدق أجهزة الكمبيوتر تتابع بورصات العالم وتتميز لياليها فى قصرها النئى بمجموعة مختارة من الرواد .. قالت: إن الصراع بين البراكودا هو الذى أوقعها - وأنها تستجم حتى يتفاهم البراكودا مع بعضه - وهى لا تعرف إلا البراكودا الطيب - هل مازالت البراكودا نوعا من الأسماك المتوحشة - لا أعرف فمعانى الأشياء كلها يتبدل حولى .. تبينت أننى لا احتاج أسئلة أوجهها إليها - فهى لا تتوقف عن الحكى - وعرفت أنها مثل الماما امرأة اجتماعية كانت تقصد السيدة والدتها اليونانية أظن أنها وصفتها بأنها كانت امرأة اجتماعية - ولما لاحظت دهشتى أرادت أن تساعدنى وأوضحت أن الحياة عندها وعند الماما بسيطة وجميلة ولينة - لا تعرف من أين يأتى الناس بالكومبلكس - لابد تقصد العقد النفسية - ولابد أن الجميلة تقدر على أى شيء حتى قراءتى من أطراف أقدامى حتى خصل شعرى القصير الخفيف المبتل دائما بغرق عصبيتى واضطرابى ولابد شاهدتنى أغرق فى أبار الكومبلكس .. تذكرت أهلى الطيبين .. اكتشفت متأخرا أن تعاليمهم أصبحت عقدا نفسية فى نظر هذا الزمان .. سرحاتى الطويلة جعلت حكيها يصلنى كالكلمات المتقاطعة - لما عدت إليها كانت تتحدث عن جدج - لابد أنه القاضى ولابد أنها بنت الحدوة التى ضربته على وجهه لما امتلأ بالذباب - لما ألحت على فى أن أطلب شيئا تكون نفسى فيه أو أكل من الحلوى الفاخرة التى تملأ المنضدة بيننا التفت إلى المرأة التى تقوم على خدمتها - أظن أنها كانت السجانة وطلبت فنجان قهوة تركى سادة - فقد تعودت أن

أشربه على روحى كلما اكتشفت جديدا من عجزى عن الفهم - لا أعرف لماذا ظننت أنى قادمة أطلب وساطة وأعطتنى بطاقة توصية - لم أجد ريقا ابتلعه لما سمعت اسم الصديق الفريمون الذى استطيع أن اذهب إليه .

ابنة اللؤلؤ وهى تناول من قمها فمه - الفهد الصغير الذى لا يستطيع أن يعيش بعيدا عنها - اكتشفت نوعا من المخلوقات يتنفس رغم تصفية دمائه، خلعت كل عروقى منها. اكتشفت أن قلب الجميلة لا يحتمل رؤيته مقيدا.

خافت أن تختنق فى المصعد .. بحثت عن السلم وجدت أنه يصعد ولا يهبط أبدا وأن سلماته غادرت الحائط وبدأت تطير فى الهواء .. بحثت عن شىء تستند إليه وتتشبث به اكتشفت أن سلماته وجدرانها لها شكل الرخام ولمسها من طين يرتج .. وتضيق الممرات وتصبح خطواتها تتقدم إلى الوراء فى بطون لزجة لثعابين تلتف عليها وتعتصرها .. ولابد أن تفرغ ما لم يدخل جوفها وتفصد عرقها إلى أن تبدأ فى استرداد وعى خائر وتصعد بالتدريج جوفها أملس لبيتر بلا قرار .. ساندوها لتخرج من الحفرة التى وقعت فيها .. اعتادت زلزالها وأصبحت تخاف أن يغيب فيجهز عليها الوعى بما يحدث حولها .

(٣)

الحنين إلى الماضى .. هل ينقذها .. عشقها القديم للتاريخ وتفوقها فيه .. هل استعادته لتتماسك وتقاوم ... تذكرت حلمها القديم فى أن تعيش وأن تعمل وسط الآثار .. وفى اهتماماتها الصحفية المبكرة وفى رصد ما خرج ولم يعد من قطع نادرة

ولما عاد مقلدا - وفى تحقيقاتها وزياراتها - وفى بعض الصور الصحفية التى يلتقطها زملاؤها المصورون كان صاحب هذا الوجه كأنه أقر من لحم ودم - وأحيانا يبدو كما الرسم الخفى الذى لا يظهر فى العملة الورقية إلا إذا رفعت للضوء ودائما يظهر فى يديه أوراق كأنه يجرى مقارنات أو يجمع أشياء من فوق الأحجار .. أصبح يقينا عندها أن هذه الملامح رأتها من قبل .. فسرت اليقين بما تؤمن به من قوى روحية للفراعة وأن هذا الشبح البشرى إما روح حارسة تتخفى فى رداء من زماننا لا يتبدل على الإطلاق أو روح سرق موميها فغادت تبحث عنها فالرأس الأسمر حاد القسمة البارزة اشتعل فيه الشيب - بل كثير من الموميوات لديها من علامات الحياة أكثر منه وإن كانت طاقة الحركة وقوة الظهور والاختفاء لا تدل على ومن .. وفى كل مرة تنبهت إلى وجوده وعثرت على طرف خيط يقودها إليه وسعت إلى لقائه يختفى بالسرعة التى يظهر بها ويستحيل تحديد الاتجاه الذى ذاب فيه . وظل طيفا يلوح فى أطراف صور تلتقط فى المناطق الأثرية - بالذات تلك البعيدة عن الضجيج والاهتمام .. أصبح اعتيادا عندها أن تبحث عن نقطة باهتة أو ضائعة .. وبات يقينا أن خداعها البصرى والنفسى طبع خيالا للصورة فوق حدة عينيها .

آخر ما توقعته أن تجده بطلا لحادث على الصفحات الأولى وقعت الواقعة ونشرت تفاصيلها فى جميع الصحف أثناء اكتشاف خبيثة معبد الأقصر .. قبضت السلطات على مجهول يحاول سد الحفرة التى بدأ منها الكشف - دلت التحريات أنه مدرس قديم للتاريخ . قال إنه استبعد من التدريس بعد أن تسلطت عليه أوهام التكليف بمهمة رسمية لحماية الآثار وأظهرت التحقيقات أنه

مصاب باضطراب عقلى فقد ظل يهذى وهو يهيل التراب ويقاوم إنجازه الكشف التاريخى وإخراج مجموعة التماثيل النادرة التى ظهرت عندما ان تفعت المياه للجوفية ومالت الأعمدة: البعض ممن شاهدوا واقعة المقاومة حكوا أنهم سمعوه يقول إن الأوان لم يأت بعد وأن الخبيثة يجب أن تبقى مدفونة حتى تزول الغمة وتكشف الكاشفة ويطلع النهار.. قالوا إن كلماته المضطربة امتلأت بما لم يفهموه وخيل إليهم أنه كان يحكى عن ست المتخفى تحت اسم سنوحى الذى سيأخذ نصيبه من الخبيثة ويحمله على ظهره فى الليل ويعبر النيل إلى الشمال وداخل الأقنعة يعبرون البحر .

مفتشة الآثار الأقصرية المبعدة عن العمل إلى بقايا أثر مهجور بالبر الغربى ، سرقت جميع محتوياته ولكنها تعتنز بأن ترعى حتى الجدران المتهدمة الباقية حكّت لها إنه كان يتحدث عن برابى جديدة يجب أن يرفعوها فى كل مكان. لصد الطوفان القادم.. شرحت لها حارسة الآثار أن البربا كلمة قبطية معناها المعبد .. وهما تسيران إلى جانب النهر أشارت إلى معبد الأقصر على الطرف المقابل وقالت : « قالوا إن الأعظم بين كل ما بنى الفراعنة من برابى - وأشهرها الأقصر والكرنك وأبو سمبل ودندرة - كان بربا أخميم .. ووصفها الأندلسى « وهى من عجائب الدنيا مبنية بالصخر المنحوت لها أربعة أبواب من أى باب خرج يجد بيتا مثله وهى آلاف من البيوت المظلمة لا تدخلها شمس ولا قمر ولا يصلها الضوء إلا من الباب الذى دخل منه ، فكانوا يدخلونها وبأيديهم السرج والشموع يوقدونهم فى رائحة النهار ويصعدون فى مواضع حيطانها درجات كالسلم فيصلون إلى بيوت آخر كالغرف فوق هذه البيوت على قدها وهيئتها وقصدها الأغلب أن يحفظ فيها كل ما يخشى عليه الضياع والهلاك وتنوعت

المحفوظات فشملت العلوم والفنون والصنائع والكثير من الحاجات الدينية والدنيوية .

وواصلت حارسة الأثر التي تحولت إلى عاشقة له تضوى سمرتها ولهجتها الجنوبية بحلاوة الوصل والذوبان : « فى دراستنا عرفنا أنه كان الهدف من بناء البرابى الاستعداد لمواجهة ما لا بد سيأتى من طوفان عندما تمرض الأرض وتعتل ويمتلئ وجهها بالبثور ويسيل القيح فيأتى الطوفان ليغسل ويظهر وهو إما نار تحرق أو ماء يغرق أو زلزال يشق الأرض إذا ورم بطنها ببخار السوجع .. وقسموا البرابى إلى قسمين قسم لحفظ خزين يكفى لإطعام المدينة لسنوات حتى يهدأ الطوفان .. بينما القسم الثانى من المعابد يحفظ فيه ما أبدعوه من فكر وفن وأوراق وكتابات وتاريخ وتماثيل لتصل إلى أحفادهم ويتعلمون ويعرفون ويعملون ويواصلون .. »

بعد أن عبرت بنا المعدية إلى وادى الملوك بالبر الغربى وقطعنا مشوارا طويلا لنصل إلى مكان عملها فى أثرها المهجور أشارت إلى بعيد وقالت إنها لم تشاهد الأستاذ كما كانوا ينادونه هناك إلا متأخرا لما جاءت هنا وعرفت أنه معروف لأهل القرية ومحبوب بينهم وكان ضيفا على كبيرهم وإنها عندما سمعته مرة يتحدث أنبهرت بفكره. كان كما وصفته أعقل من سمعته يتكلم ويعنى ما يقول ويقصد المعنى فى دعوته لإنشاء برابى جديدة فهو يريد إقامة القلاع والحصون داخل نفوس البشر ووسط تجمعات الشباب والبنائين ليزداد ويقوى الحفظة .

فى توالى النشر عن حادثة القبض عليه والتقرير الطبى الذى طلبته جهات التحقيق عن حالته العقلية والنفسية قرأت أن أسرته وعدت بإبعاده عن مناطق الآثار وإخضاعه للعلاج . واحتفظت هى

■ الزلزال ■

بالسطور المبتورة وأكملت المعاني والكلمات الناقصة فالاضطراب العقلى أصبح ظاهرة واسعة الانتشار وتفسيرا مريحا لكل ما لا يريدون تفسيره الحقيقى ونهاية تغلق بها ملفات القصص التى يبدو فتحها مثيرا للمشكلات . ولم تستطع أن تهتدى إليه فى أكثر من عنوان قالوا إنها تستطيع العثور عليه فيهم .. ومثل قصص وبشر وأفكار كثيرة محالة إلى الزمن الأفضل القادم أحالت ما جمعته من أوراق إلى ملف يحفظها من الضياع لتستدير إلى ولدها الكبير وهو يزداد كل يوم أنفلا تا .. يطلق عليه أبوه ببالغ الزهو رجولة ويقهقه طربا بأن الولد يثبت أنه سر أبيه فى فهم زمانه والتخطيط لاختصاره واقتناصه والقفز فوق أكتاف امكانات أبيه لما يريد ..

تحول إلى شبح ليلى لا يصحو إلا عند اقترابه ولا يعود إلا عند الفجر - يكتسب بالتدريج هزال الأشباح .. يزلزلها فزع الانتظار اليومى والهواجس تطاردها بكل ما على الأرض من مخاوف .. الولدان وكأنهما أخليا من الأعمدة الفقرية وكل ما يريدان مباح لهما .. فى فراغ صدرها حيث عشمش الهلع وأفرخ غربانا تنعق يثقل وجعها ورنين ضحكات الولدين أيام كان حضنها ملعبهما .. يوم فى الزمن البعيد خططت لبدء الزرع فى أرضهما مبكرا وصراعها مع الاكتشافات المتوالية منذ أن كان عليها أن تصدق أن من توهمت غير من تزوجت وبرقيات الايام المنذرة إنه زمان غير الذى تربت وأمنت وتفهم ..

وقتالها لتبقى لولديها بيتا من لحم ودم وفزعها لتبقى لنفسها البنت التى كانت يوما تريد أن تكون شجرة وحادث التصادم الذى لا يكف عن سحق عقلها وعظامها .. هذا الوسع بداخلها يسع الدنيا والواقع يضيق بها وعليها وأحلام النجاح فى العمل مطاردة

وكتابة رواية جديدة تنتظر أن تنجز مهمة أمومتها. وأمومتها تنفرط وملفات مشروعاتها للكتابة تمتلئ بالأوراق الميتة والشواهد تطلو ومعاينة الواقع حولها تبعث الخجل فيها من عذابها وتجعل موتها متواضعا إلى الموت حولها .. تصدع روحها بهاجس ضياع الولدين بدا مبكرا والفرحة بميلادهما سرقتها رغبة مجنونة فى أن تعيدهما إلى أعماقها ليولدا فى مكان وزمان تستطيع أن تمنحهما فيه الدفء والأمان وتحقق ما حلمت لهما ولها وللحياة .. ولا تكف عن القتال اليومى بوهم امكانية الاقتراب من الحلم . وانضم إلى الجفاف المبكر للحب وللبن صدرها تحاريق الأيام - أعلنت الفصول الأربعة صيفا حارقا - العرايا يملأون الشوارع .. التفرقة صعبة بين عرايا الجوع وعرايا أحدث الصرعات - ما لا تخطئه العين ملابس تؤكد انتشار جنس ثالث لا هو من الرجال ولا من النساء : « لم تكن لى علاقة جنسية مع صبرى » جعلت الولدين يحفظانها ويفهمان معناها من خلال المأثورات القديمة التى كانت تلجأ إليها لتربى وتربط بالجدور مجموعة اللامات التى حفظتها عن ظهر قلب .. كانت تكتبها على ظهور كراساتهم وترسم بجانبها عملية وزن قلب الميت حيث يضع أنوبيس قلبه فى كفة ميزان وأمامها ريشة لتحكم على ما فعله فى دنياه والثواب الذى ناله - ومن يمر بهذا الاختبار يمر إلى النور والخلود .

فى محاولاتها المخطوفة من زمانها المثقل بالآلم ومن إقلاات نادر من شللها النفسى حلمت أن تثمر وتشد ظهريهما وهى تضع الطعام لهما كانا على توقيع الملاعق والسكاكين والشوك يرددان اللامات معها - لم اقترف شرا ضد الناس .. لم أسىء معاملة لم اقترف معصية فى مكان الصدق لم أسب الإله لم أفعل أذى

ضد فقير لم أشوه سمعة مرعوس عند رئيسه .. لم اجعل أى فرد مشمئزاً .. لم أقتل .. لم أدنس نفسي .. لم أزد أو أنقص مقياس الحبوب .. لم ألوث المياه .. ولم أوقف المياه الجارية .. لم تكن لى علاقة جنسية مع صبي .. حكمت لهما كيف كادت اللام الأخيرة أن تأتى لها بمصيبة ومدرس التاريخ يثقب وجهها بعينه وهى ترفع إصبعها بعد طول تردد لتقول إنها لا تفهم .. لا تعرف ما حدث بعدها وما زالت لا تعرف ولكن مازال ثقب عينيه محفوراً فى رأسها .

عيناه .. ماذا يجدد وصلها بهما كلما ازدادت خلخلات روحها . تستعيد الذكريات لتضع ثلجا فوق الأحداث .. الولدان يعدان أوراقهما ليقفزا الثانوية العامة بعيدا عن مصر .. ثم يكملان تعليمهما هناك .. أو لا يكملان .. الأب والزمن والمتاح لهما أتسع على كل ما توهمته ضرورة لصناعة الرجال .. خرجت الأمور من إرادتها وإدارتها والمقاومة خائبة وخاسرة . الرجفة تدب من بعيد وتعلن إنذارات نوبة من زلزالها .

(٤)

أصبحت الشمس تشرق من الغرب .. يجب أن تصدق .. كل ما عاشت وفهمته يتبدل - الفرار من روحها المختنقة مستحيل والذهاب إلى أبيها هو الموت بعينه .. غيابها عنه يطول .. بعد كل زيارة له تحتاج إلى مواسم استشفاء لتملك شجاعة احتمال أن تراه مرة أخرى .. دخل فى حالة كاملة من الصمت وامتنع حتى عن نوبات الضحك والكلام التى كان يتعرض لها على فترات ويسترد فيها طبيعته المرحية وروحه الساخرة ويطلق عليها بقايا

ما عاش يحبه من دعابات وآخرها ضحكة عليها لأنها ورثت منه الجدية والمثالية . كانوا قد أثبتوا عليه الرشوة ليجبروه على الاستقالة وحبكوا أطراف الجريمة وأقاموا الأدلة وجاءوا بالشهود كانوا من تلامذته الذين دربهم وأعطاهم خبرة عمره - لما بدأ المرحلة المتأخرة لغياب العقل كان يهذى بما دبروه على أنها أفعال مؤكدة وأنهم أدري بما فعل . والمؤكد أنه كذب ولا يعرف أو كذب وهو يعرف .. قبل المرحلة المتأخرة وفي زياراتها له في المصحة النفسية وفي محاولاتها المستميتة لإخراجه من صمته الذى صنع منه جدارا سميكا واختبأ وراءه كانت تنتابه نوبات حكى عن كل ما كان يعرفه عنهم من انحرافات .. كان يصدق أن الإعلان عن واحدة منها كفيل بإخفائهم من فوق سطح الأرض .. هدد وحذر .. قرروا أن يكتسوا وينظفوا طرقهم .. اشتداد الحالة عليه أخذه إلى محاولة إيلاء النفس وأفلت من الرقابة الدقيقة ودق رأسه فى الحائط وشجها ومن وراء الضمادات وفى نوبة يقظة عالية يومها كان يتأرجح للأمام وللخلف على مقعده الهزاز وجانب وجهه يغيب فى قرص الغروب الأحمر ويصنع سلويت أسود بالغ الشموخ والشجن - احتضنته بروحها وألقت على صدره رأس البنت التى تاهت منه ومنها ومازال المنادى يجوب حارات وأزقة الأيام بحثا عنها

قال لها : شج الرأس جزاء عدل لمن ترك اللصوص يسرقون زمانه وشرفه وعقله .. وبعدها كالمعتاد ينهار فى نوبة ضحك ساخر لا بد أن تنتهى بالبكاء وعلى قدر ما تعذبت بغياب وعيه كانت دموعه مذبحة لروحها حتى وجدت فى غياب الوعي راحة له من جحيم التذكر .. كانت قد غابت عنه طويلا فرارا من العذاب الذى تذهب به ونوبات الرغبة الحادة فى الموت التى تغادره بها

تتمنى أن يكون الفرار من نفسها .. التجديف بلا منتهى فى فرار بين الزرع الأسود تطاردها المردة التى لها طول وحجم رعوس الأشجار الثقيلة وزحف نوبة الزلزال ..

لأول مرة تهاجمها نوبة قبل زيارة - قاومت الفرار إلى الخروج .. توجست حولها أشياء تحدث لأول مرة .. يبدو أنها غابت طويلا فى سفرتها إلى الأقصر ولما قلبوا الأرض عليها جاءوا بزوجها ومضوا فى استعدادات الدفن ..

تساندت إلى صديقته وصديقتها الطيبة التى تحتفظ بجمال طفولتها رغم أنها تجاوزت الستينات - كانت مشدودة إليه دائما بمشاعر دافئة وجعلت لرعايته خصوصية جعلت المصحة كلها تعقد بينهما صلة قربى ..

حكى لها أنه أخذ حمامه وحلق ذقنه ولم يكن يوما أجمل وأهدأ مما كان ولا رؤيته أكثر وضوحا لأدق تفاصيل ما حدث له - وعلى هزات مقعده الذى لم يأت بغيره من البيت مع كتبه وشرائطه قال إنه عندما لم يقف ويشتد وتراجع أدخلوه فى الحائط وأجهزوا عليه - أعاد ترتيب كتبه وأخرج شريط الشيخ سيد وأخذ يدندن معه زورونى كل سنة مرة - ظنت أنها لم تعد إلا أيام ويشفى ويغادر نهائيا .. طلب منى أن أطمئنك عليه .. الاطمئنان عليك آخر ما تمناه ورسالته الأخيرة التى أعادها أكثر من مرة - إنه لما لم يقف ويشتد وتراجع أدخلوه فى الحائط وأجهزوا عليه أظن أنه أغلق عينيه بعدها وظل يدندن حتى أصبح له صوت الشيخ سيد درويش وحده فى شريطه الذى يدور بجانبه .

تحققت لها مشاعر راحة مسروقة لم تحصل عليها من ألف عام .. اختبظت بمقعده الهزان الذى كان يحلو له أن يقرأ فوقه

■ الزلزال ■

وعلى إيقاعات اهتزازات خفيفة يرقب الغروب ويفنى لسيد درويش وقديم عبد الوهاب .. وخبأته تحت شجرة من أشجار روحها وظلت تقدم له الرعاية التي لم تقدمها له وهو يقف ويقوم وهى تائهة بين شواهد الموت ترتفع حولها..

على واحد منها كتبت اسمها وزواجها الذى لم تستطع أن تتذكر له تاريخا وعلى الثانى كتبت عناوين ملفات تحقيقاتها الصحفية ومشروعاتها المؤجلة دائما وأسماء قصص وإشارات إلى نماذج إنسانية قد تغذى بها يوما أعمالها بعد أن أصبح فعل الكتابة يموت بين يديها .. شلها النفس يسارع تسلط زوجها حتى لا تكتب خرقها الذى قد يسىء لمكانته .. بعد أن انقطع بينهما كل شيء لم يبق إلا خيوط الصراع واستبسالها لتبقى بجانب الولدين وأمومتها المريضة بهما وعناد وأشواق لا تخمد لانتصار الحلم رغم توالى الانكسار .. ومضات الأمل تمثل أطواق نجاة .. ذلك الاستقبال الحار لعملها الأدبى الأول من ملف أيامها وأوراقها الحبلى بما اخترنت وبدفقة الصدق وحرارة كي الرجوع كتبت .. وهى تحاول تجربة جديدة كان الطوفان يعلو وما عاشت عليه يتبدل وما استطاعته من قبل تفقد القدرة عليه والكتابة التى كانت فرحة وجبرا للروح وإطلاقا للذات وضرورة لتوازن الحلم والواقع تبدو عبئا ثقيلا على عقلها المنهك وأجنثته تختنق فى رحمه حتى أصبح الميلاد العقلى مستحيلا مثل مواليد جسدها التى كانت تشتهاها حبا واتصالا حقيقيا بالوجود حتى لم يتبق من أحلامها المتوحشة برغبة الحياة والحب والعمل والنجاح شيء .. لم تعد تتنفس إلا رائحة القهر والعجز والفشل - تشبثت ولو بجزرة حمار تشدها . أحبت الصورة وهى صبية ابتدأت تجربى تمريناتها الأولى فى القراءة والكتابة بمهارة وموضوعاتها

للتعبير تثير إعجاب ودهشة معلمتها أمينة وهي تقول إنها تريد أن تكون شجرة لها فروع وأوراق تظلل وثمر يؤكل وعصير يروى وخشب يؤوى ويصنع أوراقا وأقلاما وكتباً وصمغاً يلصق فيها كل ما تحب - دوى لها تصفيق الفصل أكثر من مرة .

كان يربكها التصفيق ولكن التقدير يستعيد ثقتها المفقودة ويطلق فرحة قلبها الذي كسره رحيل أمها المبكر ووجدتها الثقيلة وغيبات أبيها الطويلة .. الصمت والوحدة رفيقا طفولتها لا يملأهما إلا صداقة الأقلام والأوراق .. ووسط القصص التي قرأت وأحبت وتخيلت ظلت جزيرة الحمار الأحب - لما كبرت فهمت حلاوة الحياة عندما تندفع وراء الحب والنجاح ووسط ضباب البدايات ونقص الوعي احتاجت إلى وقت طويل لتدرك أنها تركت حياتها تندفع عكس كل ما أحبته وحلمت به ..

المد يرتفع والطوفان يغرق روحها ويجتاح أرضها وثناياها وعقلها يتصدع هل يلحق بما أصاب عقل أبيها .. الخوف منه والخوف عليه ورغبة احتضانه والفرار منه .. الجنون يصيب حتى دوارها وانحسار إرادتها وما أرادت ولم يتحقق يفسر شواهد الموت التي تكثر حولها وارتفع شاهد جديد على قبر أبيها .

تثق أنه يستطيع أن يسمعها بعد أن تحرر من آلامه أكثر مما كان يستطيع وهو يموت أمامها كل يوم بالقهر والخذلان - وبعد أن ينجز المقرئ قراءة الخميس ليلحق بمدفن آخر لابد أن يتحسس وجه الفطائر ويمص أصابعه ليصدق أن الرحمة عندهم مغطاة بالسكر .. أقسمت أن توالى إمداد أبيها بكل ما أحب حتى الكعك بقوام متماسك أحمر اشتدت عليه نار الفرن مشرباً ببياض السكر وكان يصفها بوجه امرأة حلوة تضحك له ولا يمل الحكي عن حلاوة وجه أمها وأنها ورثت بعض عسله لولا .. ويقطع

الكلام - وكانت تعرف ما يقطعه - لولا التعاسة وانقطاع الحب والأمن وكل الحيل والجزر الذى يشد سفينة الروح لمرسى تأمن فيه العواصف والنوات مهما ارتفعت وكانت قد أصبحت جبالا والزمن يتبدل وجميع المعطن فى حياتها مثله مثل زمانه لا علاقة له بحقائق الأشياء ونبوءات أبيها لا تكف عن إثبات صحتها منذ قال لها عندما يأتى أوان النضج وتسقط عيونك وبقية حواسك اللبنة ستبكين بدلا من الدموع.. ثم تأخذه رحمته بها ولا يكمل وكعادته يشيح بوجهه بعيدا حتى لا تقرأ الأكثر وهى تهدد حنينها إليه بمحاولة من محاولات الضحك القديمة معه قالت له - ولكنك تحمل قدرا كبيرا من إطالة عمر الحواس اللبنة وطفولة الوعى يربت كتفها ويقول جملته الدائمة «ماقدر كان وما كان منا لم يكن على قدر الشدائد» - جغرافيا الطرق المعتادة تضيع منها دائما - كان طريق المدافن منذ جاءته لأول مرة وراء أبيها .. وانتظمت فى الزيارة تضيع فيه كل مرة .. تأكدت أنها فى الأغلب تأخذ الطريق الذى تعرف أنه لا يمكن أن يكون إلى الخروج .

(٥)

وقبلات الولدين يوقعانها فوق وجه جليدى فقدت تماما الاحساس به ويغيبان فى الطائفة وراء الأب والسلم ينزع والطائفة ترتفع تأكدت أنه ما بقى فيها من طاقة للحياة يتسرب .. والعمر .. والولد .. والحب .. والزوج .. والعمل .. لم يبق شئ استطاعت أن تلحق به ليكون كما حلمت أو فعلت .. كانت قد صرفت السيارة الشبح الفارحة التى جاءت بها الأسرة فى مشهدها الاجتماعى الفاخر - وكانت طلبت أن تلحق بها سيارتها الصغيرة لتعود بها وحدها .. كانت من بقايا قليلة صمدت من

زمن الحلم والبدايات .. وداخلها تستطيع أن تكون هي وأن تغلق نوافذها وتطلق أماتها وتسمع صيحات الطفلين وهما يتقزفان حولها وتبادللها الشقاوة والدعابات وتصل الحواريات المقطوعة وتخطط لتبقى تفتحهما ونضجهما في حضن بلدهما .. لماذا لم تستطع شيئا واحدا .. هي أو الزمن .. أين كان الخطأ . كلما فرت بعيدا عن المطار ازداد صوت الإقلاع اقترابا .. ملأ السيارة حتى خافت أن تنفجر بقوة دويه .. فعلت المستحيل لتجمع شظاياها وتسيطر على عجلة القيادة - ضباب فجر سبتمبر يحجب الرؤية - بالكاد تلتقط تناثر صوت مذيع قادم من وراء البحار .. إرهاب الفلسطينيين يهدد أمن إسرائيل ويجهض اتفاقيات السلام.. العراق يستقبل فريق تفتيش جديدا .. دفعات جديدة من أطفال البوسنة تضيع في أوروبا .. تصاعد أرقام اغتصاب النساء وبيعهن في أسواق النخاسة الجديدة ..

أمريكي يطلق الرصاص من نافذة بيته فيقتل ويصيب جميع المارة .. كليلتون يحصل للشواذ على حقهم في التجنيد .. تلاشى صوت المذيع وسط أصوات انفجارات .. زلزالها لم تسمع لمقدمه من قبل مثل هذا الدوى .. فعلت المستحيل لتواصل سيطرتها على وعيها وعلى السيارة .. سمح لها قدر من انقشاع الضباب أن تتبين أنه ليس زلزالها ولكن يحدث على النهر الآخر للطريق مطاردات ورصاص ومدافع رشاشة لابد أنها مواجهة أخرى بين الشرطة وجماعة من الإرهابيين .

الفاطحة التي سمعت روحها ترتلها لا إراديا كما اعتادت لابد كانت للأموات من سكان جانبي الطريق حولها .. شواهد المقابر أكدت لها أنها كانت تأخذ طريق العودة من المطار عبر الإمام الشافعي .. إلى أين أخذتها الطرق الجانبية التي فرت إليها وتخرجت مع حاراتها الضيقة الدائرة حول بعضها .. هل أخذت

■ الزلزال ■

الطريق العكسى عندما أحست بالمطاردة تنتقل إلى النهر الذى تجرى فيه سيارتها ومن أين جاءت هذه القباب والتلال .. وأنشقت الأرض عن سد هائل أو جبل شاهق يجذبها .. بمغناطيس إليه .. تغادرها عينها .. الجبل ينخل مكانها .. هى تنخل فى أحجاره .. توقف كل شئ .. أزيز الطائرة وطلقات الرصاص وهرولة الأقدام لוחات سرىالينة حمراء ملأت زجاج السيارة أمامها .. الدنيا كلها حمراء .. الزلزال يكف عن أرجحتها فى الهواء وتهوى إلى بئر عميقة مياهها حمراء وفوهتها نافذة زجاجية عريضة تحول زجاجها إلى دقيق يمتزج بماء البئر الحمراء .. آخر التفاصيل التى وعتها والمشاهد تذهب إلى بعيد .. بعيد عنها وهى فى عمق البئر التى ظلت حفرتها تذهب بها أعمق فى باطن الأرض لمحت وجهه بينهم .. ظلال خطوط الوجه الذى تعرفه ولا تعرفه .. مدرس التاريخ ملامحه قريبة منه .. حاولت أن تتشبث ببقية خائفة من وعيها لتفهم لماذا أتى ليظهر فى المشهد الأخير .. مدت يدها إليه .. احتضنها بين كفين حقيقيين .. بردت آلام متوحشة نشبت أسنان ذئاب الأرض فى عظامها .. رفعتها أرجوحة الزلزال حتى لامست بذراعيها وصدرها السماء عادت وطوحتها ونثرتها عظاما حمراء فوق الأرض .. شاهدت رأسها بعيدا عن جسدها .. عرفت أن لحظة رحمة أخيرة تهب لها وإنه الرحيل أخيرا بعد طول الشقاء

(٦)

طالما اهتمت بقراءة تجارب الذين عادوا إلى الحياة بعد أن أعلن الأطباء موتهم وأكثر من مرة خطرت لها خاطرة أن يستطيع ميت أن يرسل تجربته .. لم يخطر ببالها أن تكون صاحبة التجربة

وأن تخوضها بعد أن فقدت أطرافها فلم تعد تتبين أعضائها وتفاصيلها .. هل تستطيع أن تملئ خواطرها .. هل مازالت تملك صوتاً يصدر معاني وكلمات .. لا بد أن المعجزات هنا تتجاوز ما عرفتة وسيعرفه العلم على الأرض وتخترق بقوى متقدمة حواجز الزمان والمكان .. ربما وهى تفكر تتجمل بأحد ما ويسمعا وهى تفكر .. كأن هناك من يسمعا ويحدث تلبية لما فى داخل رأسها أو يتخاطر معها ويدرك رغبتها فى أن تتبين ملامح العالم الجديد الذى انتقلت إليه .

كان المشهد رائعاً للأرض المرتفعة كهضبة عالية مدرجة .. فى أولها وجدت تلاميذ المدارس يتعلمون فى فصول شديدة البساطة والجمال .. الأطفال والصبيان والبنات يبدون كنوارس البحر ولكن بوجوه آدمية ولهم أجساد طيور البحر فى خفتها وتقافزها ونصاعة بياضها وأصوات تختلط فيها موسيقى وضحكات وزقزقات ومطالعات ، طيبة شابة كأن أحاديث طويلة دارت بينهما من قبل صنعت بسرعة تعارفاً وتقارياً . كان للطبيبة دقة ملامح صديقة دراستها الجامعية التى انقطعت أخبارها فى الصحراء بعد أن ضاعت مع وباء حرب الخليج .

من داخل أكفان بيضاء وكأنها مومياء تبعث . أصفت إلى صديققتها . قالت لها : سنة أولى زراعة على أول درجات السلم .. زرع المحبة والأمان وحب المعرفة فى أرض العيال ليتعلموا ويتذوقوا حلاوة التعليم وتكتشف مواهبهم فى فجرية أعمارهم وينمو لهم واللحم مازال طرياً أجنحة الإيمان والمعرفة فيظلون العمر يحلقون .. وأريطة الأكفان تخف من فوق موميائها تسترد أطرافها وتحبو إلى أعلى .. كلما صعدت درجة من الجبل اختلف المشهد . أحببت منطقة المراعى وتربية المواشى والأغنام وتصنيع الألبان ومنتجاتها يملؤها أطباء البيطار الشباب .. كادت تجن

بجمال المزارع الخضراء التى ملأها الفلاحون وظهر أبو قردان كأنه عاد من البلاد البعيدة التى هاجر إليها بعد أن سكن التلوث فدادين الزرع. لابد أن نوبات غسيلها المتكررة أعادته إلى الوادى الذى سكنه قبل أن يبدأ التاريخ.. عشقت درجة الجبل التى امتلأت بالفنانين قالت لها صديقتها أن قمة البربا يوجد بها كميات هائلة من الطين المعالج فى أحواض ضخمة معرضة للشمس منها يصنعون تحفهم الرائعة الفخارية التى تحمل الصاحبة القديمة اسمها « الفخارين » .

البربا .. سألتها هل تعرفها قالت لها أنها الاسم الذى يطلقه الأستاذ على كل منطقة تصنع لأولادها حصنا بالعلم وبالعمل ومن تعلم منا لابد أن يرد الدين بأن يهب جزءا من وقته للتدريس فى المدارس الأهلية أو فى فصول التقوية لتلاميذ المدارس الحكومية أو فى فصول محو الأمية .. وسط تصنيع الفخار اليدوى وبالذولاب الذى يديرونه بأرجلهم وأقران التجفيف البدائية تتراجع وتزداد الأفران الحديثة وجدت الفنانين - وجوه تعرفها منهم وآخرون تراها لأول مرة قطع الطين بين أيديهم تحيا وتتنفس .. أصابعهم فوقها تعزف .. يستدير الطين .. يتخلق يستوى قطعة فنية نادرة . والأطفال أحجامهم دقيقة كعقل الأصابع حمصتهم الشمس ولونتهم ولونوا أنفسهم بالألوان الساخنة التى يستخدمونها يتقافزون بين أرجل الفنانين شربوا عشق الطين وإبداعه .

الصغار المنحوتون من الشمس والطين والفرجة يبدون كالأوشابى المرافق لرحلتها الأبدية .. فى الفصل قال أستاذها وهو يشرح - أما الفانيس فهو المادة الجميلة التى كان يطلق عليها قدماء المصريين البريق وأسميناه نحن المينا - صنع الفنان المصرى الفانيس من تركيب قابل للحرق من الكوارتز النقى

وقاموا بطلائه بطبقة رقيقة لامعة ليست إلا زجاجا من السليكون ويصنعونه بجميع الألوان مع طبقة لامعة خاصة من مركبات الرصاص متحولة إلى زجاج والنوع النموذجي الملون بمركبات النحاس تتراوح ألوانه بين الأزرق النيلي الداكن والأخضر الزاهى - كان الفنان يصنع فى فرنه مواد تحاكي الفيروز اللازوردى بحيث تتاح متعة وجمال وتذوق الفن للأغنياء والفقراء وظهر فى ألواح زوسر اللامعة وفى شبك الخرز الأسطوانى الملفوفة حول المومياء والتماثيل الشوابتى .

رفعت إصبعها فى الفصل بعد أن حاولت مرارا أن تسكته وتضعه تحت عظام وركها - لابد أنها « شوابتى » كما نطقها وليست « الأوشابتى » كما قرأتها وحفظتها - الأستاذ لا يخطئ ستجيب سؤاله لتثبت أنها أعدت الدرس قبل أن يشرحه وتحفظ التاريخ كالحواديت وتحبه وتحب لحظة الفوز بتقدير وإعجاب أستاذها - طالما رأته فى حلمها يربت كتفها واقتربت منه أكثر وقامت مفزوعة وظلت طوال حصته تكسر عينيها فربما رأى الحلم فيها ..

وسط صمت الفصل ووسع التاريخ وأعمدة المعابد والبرابى حيث تحلم أن تعيش حارسة للآثار أو عالمة أو منقبة أو مرممة سمعت أصداء صوتها من بعيد - الأوشابتى هى التماثيل الصغيرة المجيبة على هيئة أوزيريس ابن جب ونوت وشقيق إيزيس ونفتيس وست مرتديا الرداء الحاك وعاقدا ذراعه على صدره كما توضع المومياء وتأخذ اسم وشكل المتوفى - ويقولون أنها تلبى عن الميت الكريم أداء أعمال السخرة إذا دعى لها - إنه ينادى عليها ويقول لها - أحملنى عنى الصعاب سواء كانت حرث الحقول أو غمر القنوات بالماء أو حمل الرمال من الشرق إلى الغرب .

■ الزلزال ■

على دقته يحمل آلتين لعزق وتقليب الأرض ويعلق فى كتفه سلة
.. هل من يعمل يحيا ولا يموت أبدا - والأوشابتي واسمها القديم
الشوابتي رغم حجمها الصغير فبريقها الأخاذ من الفينانس الأزرق
أو الأخضر يمتلئ بسطور من كتاب الموتى ..

قرأت من على لوح الإردواز التى أمنت أنه لابد موجود داخل
رأسها بعضا مما حفظت - الجلال لك يا رب لتضمن لى طريقا
عسى أن أعبر عليه فى سلام لأننى عادل وحق . لم أنطق
بالأكاذيب عامدا ولا ارتكبت البتة خداعا . لم أقل كذبا أدريه
ولا فعلت شيئا بقلب غاش .

دوى الفصل بالتصفيق .. تبينت أنه لها . النشوة فوق طاقة
جسدها الصغير وتلك النظرة الثابتة التى أمنت أنها قادرة أن
تفحص وتقرأ ما وراء الجبين التصقت بحدقتى عينيها لا يمكن
أن تخطئها ..

فضت خطوط الزمن من حول عينيها - حاولت أن ترى ملامح
الوجه بدون اللحية الكثيفة الرمادية - السويس الإعدادية بنات -
مدرس التاريخ .. هو.. له الصمت المهيب والإشعاع العميق
لا تعرف إن كان ما أعادت ترديده مما لم تمنح منه الأيام بكل
أنقالها كلمة واحدة قد ذكره بوجه الصبية المتفوقة مالكة الحزينة
كما ناداها بعد ما كتبت فى امتحانها عندما طلب الأستاذ من
تلميذاته أن يكتبن عن طائرهن المختار واختارت مالك الحزين
بحكايته الجميلة عندما غمرت مياه الفيضان الوادى لم تترك
سوى القرى والمرتفعات وشاهد الأواثل من المصريين طائرا
رشيقا ينزل الماء أحيانا ويقفز أحيانا إلى الروابى كأنه ملاك
حارس للماء يبدو وكأنه يولد منه عند الفجر .. أمن المصريون
أنه يولد من الشمس.. وأن ما ولد من النار لا يحترق أبدا .. لذلك
كلما نخلها تجدد وعاد .. مالكة الحزينة .. أحببت النداء وتمنت أن

■ الزلزال ■

تغير أسمها فى شهادة الميلاد . أصبحت ترى صورته فى مرآتها ربما لأن لها نحوه وساقيه الطويلتين وشعرها القصير كان دائما كالريش الطائر فوق رأسه .. هل للوحشة التى تسكنها كانها هو اجس زمنها القادم .

سمعت أنه فى العالم الآخر - الذى عبرت إليه تلتقى الروح إذا استحققت من أحبت وتستعيد ما أحبت .. عرفت أنها تستحق ما دامت طرق الفهم بدأت تفتح لها ومن أحبت ياتون .. صديقتها الفنانة السمراء الجميلة التى عرفت أنها قادمة من واحدة من قرى النوبة - وهى تدير بساقيها دائرة دولاب تشكيل الجص وأصابعها تسوى ثنايا جسد فارغ لفلاحة وتعد للمشاركة فى بينالى دولى بعد أن فازت فى أول مشاركة حكمت لها أنهم كتبوا تقارير إدانته بصنع ثورة من خلال التدريس - قالوا أنه يمارس نوعا من التنويم المغناطيسى على عقول التلاميذ والتلميذات وأنهم يخرجون من حصصه مسحورين - لاحظ تكرار ظاهرة هروب الأولاد والبنات إلى مناطق الآثار .. حققوا معه وسجنوه وظل يردد جملة واحدة - أنه يؤدى واجبه فى تربية أجيال تتعرف إلى تاريخها وأنهم إذا تعرفوا تفتحت عقولهم وأرواحهم وامتلاوا وتحرروا .. خرج من السجن مفصولا واعتبر أنه تحرر من الوظيفة ليواصل دراساته فى الآثار ويبحث عن محبين يشيدون معه البرابى .

منذ بدأت تصعد والكلمة تطرق أذنها - واستعادت رحلة الأقصر وصوت مفتشة الآثار - البربا هى المعبد الذى أنشأه الأجداد تحسبا لطوفان قادم أما نار تحرق أو ماء يغرق - و وراء صروح المعابد وفى مخازنها العميقة فى جوف الأرض وفوقها يضعون الحبوب والاحتياجات الأساسية للحياة حتى يجتازوا الطوفان وفى القسم الثانى من المعبد يحتفظون بكل ما يحبون

ويريدون أن يحفظوا لمن بعدهم من كتب وعلوم وفنون وازدادت معارفها هنا فبرديات كثيرة حددت أزمنة الطوفان .. كلما أغرق الفساد الأرض واستحل الدم والعرض وبيع الشرف بالتراب وغطى التلوث المخلوقات وتنفسه الناس بدلا من الهواء وشوى الزيت السمك في الماء وأكلت الحرائق الغابات والطيور في السماء وتكملت كرة الأرض بأثواب الحزن الأسود في طبقات الدخان ويتولى اللصوص . مفاتيح الكرار ويترك الكف الميزان ويفتح عينه ويمد يده وفي واحدة من البرديات المسروقة والمحفوظة في متاحف الدنيا قالوا أن البرابى سيتغير شكلها وتشيد مقاصيرها وأعمدتها وسط من تعلموا وأمنوا وأحبوا وعملوا وأبدعوا وتماسكوا ورغم سخرية الكثيرين من أفكاره ودعوته .. فهو لا يكف عن نشرها .. والمحبون القادرون على تحقيقها يتزايدون والمحبون المحتاجون يبحثون عن البرابى ليتعلموا ويعملوا ويتكافلوا ويفسلا أيديهم من البطالة وعيالهم من التفاهة والأولاد الأكبر من الإرهاب والمدارس الأهلية والخيرية تتزايد .. تلتزم بمناهج التعليم الحكومية المقررة وتضيف للتاريخ والتدريب العملى مناهج خاصة ..

وأرض بيتها الجبلى الضغير كبير فيه الطين وطالت قامته واستدار ونطق وتحرك فى أشكال مستوحاة من الفنون الشعبية ومغطاة بالفانيس بالوان مبتكرة صنعتها بنسب وخامات جديدة أعطتها وهج الشمس داخل الألوان الساخنة . قالت لها صديقتها الفنانة - يبدو أنه ما زال يعاقب .. يتكرر غيابه غير المفسر - وكانت هى قد لاحظت تكرار حدوث عسس فى الليل وظهور أشباح عسكر حتى ظنت أنها درجة سرية من درجات الجبل يسكنها رجال أمن لا يأتون إلا فى الظلام .. وهى تواصل التشكيل أكملت - اتهموه باكتشاف وإخفاء برديات نادرة .. تكرر

التفتيش وأخذه للتحقيق بحثاً عن البرديات كل مرة يرد عليهم بوثائق دامغة بحجم ونوعية المسروقات وأسماء السارقين من كبير الحراس حتى الصغير .. تأكدوا أن ثروة بردياته من مستنسخات لكنهم يريدون ما سمعوا أن دراسته توصلت إليه . يعتقدون أنه حصل على بردية نادرة عن أزمئة وقوع الطوفان .. وما سمعته أن مفاتيح المعرفة موزعة في مجموعة من البرديات تجميعها يجمع العلامات وينبئ باقتراب موعد .. تظن أنها سمعت عما يحدث إذا تطابق العقربان واتحد الزمانان وأصبحت العلامات بينهما واحدة وبدأت الصروح الشاهقة كبيوت من الحلوى أكلت جيوش النمل قلبها تتهاوى وتحول الحديد بالصديد إلى تراب ومن تحت جبال الركام يولد مالك الحزين على صورة عروس للنيل حية تننفس - قتلوا الكتب أسرارها ويرسل القرآن نوره وتذوق أجراس الكنائس والتوراة تعلن حروفها براعتها من سلالة من قتل وحرقت وندس .. وسمعت أن بردية أخرى .. تكمل - أنه لا ينجو من الطوفان إلا من شرب النور وتعلم وعلم وعلم .. ينمو لهم عظام لا تتكسر ورثات تلد الهواء وتننفس عندما يبدأ وقوع صروحهم الواهية يخرج كل من شرب النور حياً - الأرض لن تتوقف عن التصدع حتى تفقد بوصلتها وتتوقف .

حاولت أن أسمع منها أكثر .. لا أعرف إن كانت اعتذرت أو علاقة الذوبان التي تحدث بينها وبين تشكيلاتها الفنية أخذتها أو نوبة جديدة من نوبات تدخل الأحداث وغياب وعيها حدثت فبعد الحادثة كان هذا الغياب قد أسكت زلزالها القديم وأبقى اهتزازات هادئة من حين لآخر تصعد بها وتهبط وتعيد لها شرائط ذكرياتها وعادت إلى تدوين مذكراتها .

كانت قد أصبحت أكثر أوقاتى وأسعدها فى المكتبة حيث الأستاذ وسط صمت القارئین والقارئات يقرأ ويدون - لفتته

اختياراتي من الكتب - فى قاعة المناقشة قلت له أننى أبحث عن كاتبة كنت أعرفها سرقتها الزمان منى - وأننى كلما قرأت وأبحرت ازدادت ملامحها تخلفا وبدت أقرب إلى أصابعى .. متى بدأ يعطينى أذنه ويسمع ويعطينى قراءاته ويعلم .. السطور والمعانى تصنع جسورا إليه فوقها أعبر - حكى له عن تلميزة الثالثة إعدادى المتفوقة والمعلم الذى أسكنها عشق التاريخ والتعرف إلى التراث وحكى حادثة نفرتارى فى معبدها فى أبو سنبل فى الرحلة التى نظمتها المدرسة إلى هناك وكيف من طول ما قرأت وأحببت نفرتارى قررت وصديقتها الأقرب أن يعشن إلى جانبها واختبأن فى سرداب من السرايب المسحورة التى كان يمارس فيها الكهنة طقوسهم .. ولم يكتشفوا غياب الثلاث بنات إلا قبل أن يتحرك الأتوبيس بدقائق - قلبوا الدنيا علينا - ونزل الليل وأطبق الظلام ولم يكن المعبد قد أضى فامتلأنا بالرعب وخرجنا وكذبنا وادعينا التيه داخل المعبد وكذبنا نعاقب بالفصل - وعرفنا فيما بعد أن الحادثة انضمت إلى القش الذى قصم ظهر الأستاذ .. ربما لأول مرة أرى ضحكاته تنطلق وتجلجل من قلبه ودموعه تغسل وجهه ولحيته وأخايد وجهه كأرض سمراء أخوارها بفيضان النهر تمتلئ .. إذن مالكة الحزينة أنت .. إذن يتذكر مالكة الحزينة.. ماذا أيضا عنده فى عمق الذكريات .. لم تذهب منى بعيدا أو أذهب أنا منها البنت التى كانت تكسر العين بعيدا عنه حتى لا يعرف الشئ الآخر الذى كنت أبحث عنه داخل العيون التى أسكنها الزمن أغوارا بعيدة فى وجهه .. وذلك الإعجاب به المشوب بالبطولة والإحساس بالذنب الذى لم يفارقنى منذ غاب أن تكون حادثة الثلاث بنات كما اسمتها الصحف شاركت فيما حدث له وتواترت أطراف أخبار لا تكتمل ولا تتضح.. أنه سافر للعمل فى الخارج وأنه استبعد عن مهنة التدريس ونقل إلى

■ الزلزال ■

وظيفة كتابية فى الوزارة .. وهى تندش لرحمة الايام التى دلتها
إليه أشار إلى الأوشابتي الصغيرة بحجم الأصبع الرفيع معلقة
فى صدرها - كنت تعلقينها فى الفصل .. من زمن .. من زمن ..
زمن بعيد بعد العصور السحيقة . لم يتقافز طائرهما الساكن فى
قفص صدرها .. من العصر الجليدى الذى نخله عمرها توقف عن
النبض وخمد وشيعته إلى مثواه وأقامت له شاهدا من الشواهد
التى أثبتتها فوق الموت الكثير الذى يملأ حياتها - طائر النار -
مالك المولود من المعاناة والألم هل له زمان آخر يولد فيه .. هل
يتذكرها أم تهذيبه الشديد يربى فرحتها التى أفلتت منها -
يستوى الأمر - أطلقت العصفور والبنت الحبيسة وحكت له كيف
عثرت عليها فى دكان صغير كأنه كهف صغير فى ظهر جبل
عताقة - كان يمتلئ بالجعارين وعرائس الأوشابتي من الحجر
والخشب والمعدن ووسطها عجوز كنحت الجبل وعمر الزمن -
وأشرت إلى واحدة فقط بينها من الفيروز - ولكن مصروفى لم
يكن يكفى ريع ثمنها فاعتذرت فنادانى وقال لى بالمحبة أكمل
ثمنها الغالى وأخذتها وقلت له سأعود بالدين ويصديقة عمرى
لتحصل على مثلها - هز رأسه وقال كل شئ نصيب - وعدت
لأكمل ثمنها وأعتذر عن صديقتى التى ضحكت عليها - فلم أجده
ولا علامة واحدة تدل عليه كان لم يكن ودرت حول الجبل أبحث
عن أثر للشق أو الكهف وسألت كل من قابلته هناك وقالوا كلهم
أنه لم يكن هناك أبدا هذا الشبح ولا متجره .

تجاوزنا طويلا حول الحقائق والأساطير وكيف كانت مفسرة
لكثير مما لا أعرفه ودخلت فى تشكيل وجدانى وعقلى والطريق
الذى جاءت منه المستجيبة بفيروزها شبه المضى فى عتمة الليل

واحبيبتها وتعلقت برقبتي وتفاءلت بها وحاولت أن أربط بينها وبين أشياء قليلة جميلة تحدث بشق الأنفاس في حياتي ثم توالى بطلان مفعولها أمام الأحداث الكبرى ثم توالى تفسيرات الأيام ومع ذلك لم أفقد أبدا الإيمان بسرهما العميق مشروطا بالحق والخير والجمال .

(٧)

لم أصدر قرارا لنفسي قد رما اتخذت هي القرار .. تلك التي عادت إلى مكتبي لم تكن هي التي صعدت الجبل - هل أعطتها التجربة تماسكا واتضحت الرؤية إن ارتجاج الواقع العام حولها يتحالف مع مرضها ليصنعا زلزالها - هل ما سمعته وعرفته أن البربا تسكنك ولست أنت فقط الذي يسكن البربا - هل يصح عليها وبدأت مواسم إثماره - هل دروس الوجع والتعلم التي تشرق بعد أن تنضج المدركات اللبئية - أنك بقدر ما تحب وتعرف تتفتح روحك وحواسك وتملك قدرات الرؤية والكشف . لنفسها تستطيع أن تعترف أنها بقدر عشق الاقتراب منه من أجل التاريخ وفهم الذات كان الاقتراب من أجل الإنسان وهذا التزود الذي يصنعه لروحها والشيع الذي يرسله إلى اشتياقها للحب بمفاهيم طرحها النضج واثبتها سقوط الأيام مع رفقة العجز وإحالة مشاركات العقل ومتع الجسد إلى مناطق المصادرة والاستحالة .. قرأت ولم تصدق حتى بدأت تعرف وتجرب أن كل ما لم تشه في أوانه سيطاردها في غير أوانه ويصبح المستحيل أن تسقط فيما يتناقض وقيمها التي تقيم عمودها الفقري ويصبح المستحيل الآخر أن تحيا بموت عقلها وروحها وجسدها . هل يستطيع الامتلاء بالتعلم والشيع بالفهم أن يسد كل المنافذ التي

تتسرب فيها نداءات الروح واحتياجات بشرية أعطتها أنظمة التربية مظان الضعف وتابو المحرم وتؤكد الأيام أنها داخل إطار القيم تمثل للوجود جوهره من جواهر قوته . وهى تسيطر على إيماناتها رغم الوجع العاصف بروحها بدأ زلزالها كأنه فى احتياج إلى هدنة أو تعب منها ومعها يتخلل الكمون أوقاتا للصراع ولتهاوى الصمود - ثم استرداد لسكينة الروح واستعادة لها من بلادها البعيدة التى تغربت فيها تطلب سكنا - الاحتياج إلى السكن ازداد باكتمال غربتها عما يحدث حولها .. تعاود الكرة الرقص فوق قرنى ثور يترنح .. تعاود ركوب الأرجوحة والاستسلام لها - تسترد الهدنة ويطول نزولها من فوق أرجوحاتها وهى تعاود ملء قلمها بالآلم الإنسانى وتطلقه رصاصا فى كلماتها .

الذهاب إليه فى واحدة من البرابى التى لا يكف عن نشرها وزرعها وجمع المحبين حولها أصبح ملاذا وشحنا للطاقة - قالت له وهى تمشى إلى جانبه تحت المطر - يغسل الروح والأيام رغم الطين يملأ الأرض ويثقل الأقدام وصبيان وبنات المدرسة الخيرية يتقافزون حولهما - كنت أريد جزيرة واحدة تمضى وراءها الأيام أخشى أن تصبح مشكلتى كثرة الجزر .

وكما تعودت أزمنة الراحة والأمان قصيرة وازدادت قصرا وغيابا فقد طلب منها أن تكف عن زيارته وصعود الجبل فقد ازداد الرصد - ضحكته التى لها مذاق شراب منقوع مرارة العالم سمعتها همسا قبل أن تنخفض همساته أكثر - يريدون بردية يتشككون فى أننى عثرت عليها فى عرابية أبيدوس - أصبحت مطلوبا من لصوص المتاحف المحترفين - كلهم يعرضون ملايين الدولارات بينما جهات لا أعرف هويتها تريد إخفاء ما تظن أنه ورد فى البردية - يعتقدون أنها بردية النبوءات التى أشارت جداريات معبد دندرة أنها تحمل العلامات المؤكدة أن الأرض

حبلى بالزلزال وأنها لا بد ستلده - يعتقدون لجهلهم أنها برد واحدة والعلامات منتشرة فى برديات كثيرة وكثير ورد فى برد أبور التى وجدت ممزقة ولغتها صعبة واستحالت ترجمتها ترجد واضحة متصلة - وقالوا فى الأجزاء الممزقة المفقودة أزم تقريبية لوقوع الزلزال التى ستشهدا أرض النيل وأخطر م تحديد الأزمنة تحديد العلامات - إذا تجمعت سبع منها أصا تاريخ الزلزال . وفى مكتبه ومن خزانة سرية أفرغ ثروة مستنسخات بردياته ومن علبة مبطنة ثمينة أخرج قصاصات بلي تماما من البردى - كان لا يمك بها قدر ما يتلامس معها ورتد بعضها منها حول أطراف بردية منسوخة ممزقة فتكاملت . عرف أنه عثر عليها بالفعل فى العرابية وسط ثروة هائلة ضائعة ومهما - رغم ما تحاوله بيوت طيبة كثيرة هناك وتضم كنوز مخطوطا وبرديات وتحرسها إلى أن يتولاها من يعرف قيمتها ولا يهرب إلى الخارج - قصاصات البردى البالية التى يأتى بها الشباب م هناك يعالجها ويرسلها إلى المتحف المصرى ويحتفظ بنسخ من هذه القصاصات كانت تحت المعالجة ومحاولات الترجمة للحروف المتناثرة وبقايا الكلمات الضائعة - تجميعها مهمة شاقة وتفسير أنصاف وأرباع حروف أحيانا فى إطار المعانى الكلي يأخذ فى واحدة سنوات أحيانا يجمع العلامات ..

فى واحدة منها رسموا: إذا فرغت اليد وكفت عن البناء واستبدلته بالهدم وضاعت المقدسات فلا بيت ولا زرع ولا عيش وتسمم الماء وضلت العقول وادعى على الإله الخلق بالقتل والسفك وأصبحت العقيدة للاستحلال ولم ترتفع البرابى دلا جدران اللحم أكل بعضه وملا الأرض بالدماء.

تمزيق قطع النص.. ثم عاد فى موضع آخر يقول
إنهم يقولون عنك يا أوزوريس ولو أنك ترحل إلا أنك تستيقظ

ثانية ولو أنك تموت إلا أنك تبعث مرة ثانية قف .. انهض
جاءت ايزيس على هيئة طائر وطرحت نفسها فوق أوزوريس
المحنط وضغطت نفسها فاستعاد قوته الحيوية
الضغط والقوة يجددان الميلاد .. ستظل ايزيس تهب
أوزوريس الحياة كلما أكله الشر وأسقطه ميتا - ضغطها وقوتها -
كل ايزيس فوق النيل ستفرش الخضرة وتجعل الموت حياة.
عندما يكتمل من العلامات سبع وتعود الدماء ويقع الزلزال
تحمل الأمل عروس للنيل تخرج حية من قلب الطوفان وتبعث من
تحت الانقاض تعلن وتجدد الميلاد

(٨)

العودة إلى الحياة بدأت بالموت.. بعد ساعات من مذبحه الدير
البحري طارت إلي صديقتها مفتشة الآثار التي نقلت قبل أيام
للعمل في المعبد ونجت بمعجزة في حجر حتشبسوت كما كانت
تسمى ساحة المعبد.. ورجفة تسرى فيها كمس كهربى لا يتوقف
وصفت كيف مزق العيال اللحم وقطعوا الأثداء وفقتوا العيون
وصبغوا الجدران بالدم.. ظلوا إغماها موتا.. ودماء الطفلة التي
خبأتها في حضنها دماها.. أقسمت أنها شاهدت بعيني رأسها
صديقتها حتشبسوت صاحبة المعبد تصد الموت بذراعيها حتى
تقطعوا وسط اللحم الذى تمزق وأقسم مثلها الخفراء أنهم رأوا
سيدة رسوم الجدران وسط أبناء الجبل فى ثوب حزن أسود
عميق تطارد القنلة وتغلق عليهم المغارة.. وأنها أشعلت للقتلى
الشموع وعبرت النهر وجاءت بالبخور من جذور الشجرة النادرة
التي جعلت بعثتها إلى بلاد بونت تأتي بها من هناك وزرعتها فى
حدائق الكرنك المقدسة.

إجراءات انفصالها عن زوجها أوقفها موت ابنها الكبير بجرعة إدمان - يقينها كامل ولا تمسك دليلا واحدا أن أباه ضالع في الاتجار - قاومت أن تفلت منها سيطرتها على جثتها وتقتله حتى لا تترك للولد الباقي ميراثا أكبر للألم .. عاد الولد من الغربية غريبا .. زلزلته محنة وموت أخيه فازداد التصاقا بها واستغراقا في دراسات دينية بلا تطرف أو جماعات - اطمأنت أن تستعيد إليه ثباته وتهدي روعه وتجمع شتاته . لأول مرة تستعيد إحساسها بأطرافها التي كان تلاشيها كل يوم يتأكد .. مازال لها وجه كانت قد نسيت ملامحه - وابتناسمة كسيرة يسكنها وجع الأرض قادرة أن تتسرب منها وهي تراه يسترد عافيته ويطلق رفوف مكتبته التاريخية ويحاول أن يفهم - تستطيع أن تعود إلى البريا بالولد هناك وبالتدريج عثر على الأب وبدأ يمتلئ الفراغ الذي طالما أحست ولديها يقيمان بنوتهما وحواراتهما مع الأب الغائب وراء نجاحاته المادية حسب مقاييس واقعه المتكافئ معه تماما - راقبت بقلب مذبوح محاولتهما المستحيلة أن يسكنا الفراغ أبا من لحم ودم .. على الأقل واحد منهما نجح .. في البريا انضم إلى مجموعة المحبين والدارسين وقدم أوراقه لقسم التاريخ بالجامعة .

زلزالها يهدأ وحلمها الخاص يتراجع بعد أن ضاع من زمانه وتكسرت بقية المجانيف التي تستطيع أن تجدف بالعمر في قارب ويحار جديدة وعادت إلى برية أبورتقرا .

لقد شحب الوجه .. والاجداد قد تنبأوا وحامل القوس أصبح مستعدا والمجرمون في كل مكان ولا يوجد رجل ممن كان محترما بالامس .

حقا إن النهالين في كل مكان .

حقا إن النيل في وقت الفيضان ومع ذلك لا يحرث أحد من

أجله وكل إنسان يقول لا نعرف ما حدث فى أنحاء البلاد .
حقا إن القلب الثائر والوباء قد أنيث فى كل الأرض والدم
صار فى كل مكان ولقائف الموميات تتكلم وإن لم يقترب
الإنسان منها .

حقا لقد دفن رجال عديدون فى النهر فأصبح قبرا وأصبح
الحزن يملأ قلوب أصحاب الأصل الرفيع والطيب والقاذورات
منتشرة فى كل البلاد - وتحول النهر دما ويظلم الإنسان للماء -
إن البوابات والعمد والجدران قد اتهمتها النيران ومع ذلك فإن
حجرة قصر الملك وبيوت الوزراء لا تزال ثابتة وواقفة وأصبحت
سفينة الجنوب شاردة وأصبحت التماسيح فى تخمة مما قد
سلبت إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر وأصبحت حالة البلاد
سيئة وحفارو القبور يرون فى كل مكان وكل شيء ينحدر إلى
الدمار والحزن يمشى فى طول البلاد ممزوجا بالأسى والأحياء
أصبحوا مثل الأموات وسقط شعر كل إنسان وقلوب الماشية
تبكى والقطعان تندب حالة البلاد وعمت الوقاحة على اللسنة
والرجل يقتل أخاه من أمه - والأخ ينبح بجواره أخوه فيتركه
وحيدا لينجو بنفسه .. والرجل ينظر لابنه نظرتة لعدوه .

أنظر لا صانع يعمل .. ومن حصد المحصول لا يعرف عنه
شيئا - ومن لا يحرث لنفسه يملأ مخزنه والكتائب يجلس فى
مكتبه ولكن يداه لا تعملان شيئا والتجارة الخارجية تنحط
وأصبحت الشوارع والطرق تحرس بالصوم .. وأصبحت
الأرض تدور كمجلة صانع الفخار ونظام البلاد قد قلب رأسا على
عقب .

حقا لقد مات السرور - ولم يعد يحتفل به ولم يعد فى الأرض
إلا الأنين الممزوج بالعويل ويقول الحكيم ليت آخر الناس يكون
قد حل فلا حمل ولا ولادة - ويقرع الحكيم نفسه ويلومها لأنه لم

فى ذلك الوقت ورفعته فى كل وقت تتكرر فيه العلامات حتى كنت أنقذ نفسى من الآلم الذى أنا فيه الآن - فالويل لى ولكل من يترك البؤس يعم الزمان .

نزلت للواقع تتداوى بعلاجه وتستجيب لنداء الحكيم وتكتب ولا تكف عن الكتابة - ولا تكف عن الكتابة - اكتشفت أنها تكتب أو الكثير منه تكتبه لعدم النشر فموضوعاتها ثقيلة الظل والدم والمجلة تريد أن تبسيع وما تكتبه لا يباع إلا فى الإمام الشافعى وعمر مكرم - احترمت بشدة رأى رئيس التحرير الذى اكتشفت أن أكبر مؤهلاته هى إحالة الرءوس إلى الراحة من صنوف وأثام التفكير الذى أصبح يتلازم مع علو الشأن وازدياد النفوذ . زهد الآلم من كثرة ما أوجعها أم فرحة الروح بمرفأ أمان للعقل واعتراف متأخر بالمرأة التى أصبحت من رجل كبير رغم عذابات إيقاف التنفيذ - أم انتماء عميق للناس القادمة منهم لم يعد يترك لزلزالها القديم إلا ذكريات .. النويات أصبحت أهدأ وزمانها أقصر وعدم النشر يزيدها اتصالا بالواقع وحركة فى قلبه وإصرارا على المواجهة .

من المرأة أصبحت تطل عليها امرأة أخرى .. النضج والفهم والناس الذين أصبحوا لها أضافوا اطمئنانا وتقلبا لأرضها التى تعطنت .. عاد الهواء يتجدد والشمس والنور ينفذان إلى مسامها والبريا تعلو داخلها وجدران وجودها تصبح من صوان أسوان والنقوش التى اكتشفت أنها محفورة فى الذاكرة ومكتوبة على دمائها تزداد وضوحا وتتردد أصداؤها .

(٩)

فى مكتبها .. كعانتها عندما تدخل مندفة كالسهم - طلبت
فنجان قهوتها وسألت عن صحفها ومجالاتها وكعادة صديقها
الساعى العجوز لابد أن يتأخر لانشغاله فى مهمته اليومية فى
جرد، ومراجعة عهدة روبابيكيا الأرجل والمساند والمقاعد القديمة
التي تصنع كومة فى الشرفة الخلفية حتى أصبح فتحها مستحيلا
ومازال بانتظار لجنة الجرد لتخلى مسئوليته ويدخل قبره نظيف
اليد والذمة.. أخيرا جاء بلفافة بريدها وصحفها - وانتظرت أن
تأتيها زميلتها التي تنافس وكالات الأنباء ولا بد أن تداعبها بأخر
ما يتحدثون به عن تطور علاقتها بالاستاذ وكانت تحكى لها
وترجو منها أن تنقل لهم ما لن يفهموه أبدا - كيف يتجاوز اثنان
بالتواصل الروحى والعقلى جميع مستويات الارتباط الأخرى
ويمتزجان ويتوحدان حتى يصبحا واحدا كيف يرتبط الواحد
بالواحد...؟! كان لابد أن يظلا اثنين ليجتا إلى ارتباط يوحدهما ..
خذاها وخذلتة وأصبحا واحدا !

تبطل زميلتها وتؤكد قسمها اليومى أن العلامات تتأكد كل
يوم أكثر أن عقلها تآكل وفرغ رأسها وهذا سر المصائب التي
تحدث لها .. لم تشكرها اليوم بالحرارة التي اعتادت أن تشكرها
بها وتؤكد لها أن مقياسها هام جدا للأطمئنان على نفسها
وسلامتها فقد كانت منشغلة بالخبر الذي تحمله فى زهو عن
ترشيح كتابه الذى حقق فيه مجموعة من البرديات القديمة لجائزة
كبرى دولية وتعيينه خبيرا للمصريات فى منظمة الثقافة العالمية.
أعدت إذنا لتصويره فقد كانت على موعد معه فى مكتبها . تمنى

أن تقول للمصور الذى جاء يتعجل موعد حضوره الذى تأخر إلى قرب الثانية عشرة ظهرا أنه يستطيع أن يسلط رأسه على جبهتها ويلتقط صورته .. المشكلة أنه لابد سيظهر فى الصورة الملف الكامل بصور حياتها . دار الشريط بالصور والخواطر - كيف تأتينا الأيام بما نحلم حتى لو كان فى عمق الصبا البعيد . أصداء صوت أبيها كانت تقول لها ردا على قلقها دائما « عندما نصدق .. ونخلص .. ونسعى .. ونموت سعيا وإخلاصا وصدقاً .. » - ودائما كان يضحك أبوها وتضحك معه ويقولان معا - موت يا حمار .

وهى تعيد ضبط تاييرها الأبيض الأنيق تذكرت الوقت الطويل الذى قضته أمام المرأة لتحمل إليه أبهى صورة لها رغم أنها تعرف أنه يصنع لما حوله صورا من خلال النسب والتشكيل العقلى والنفسى والإنسانى - أجهضت انفجار ثورتها عندما انسكب فنجان القهوة على أنافتها البيضاء عندما اكتشفت أنها والفنجان يترنحان تحت ضربات نوبة من النوبات العنيفة القديمة لزلزالها والتى غابت من زمن عنها . تلك النوبات التى كانت تركبها أرجوحة مجنونة تنفصل عن دائرتها وعن مدار جاذبية الأرض ولا تكف عن الاهتزاز والصعود والهبوط . هذه المرة البناءات أيضا تغادر أماكنها وتقترب من بعضها إلى حد التصادم وتراجع فى لحظات التلامس الأخيرة . ماذا أعاده بهذه القوة إليها . أمسكت بالمكتب تحتمى به من السقوط تحته وجدته مع ضخامته مثلها مثل الريشة يجرى من يمين الغرفة إلى يسارها وهى وراءه بعجلات مقعدها - تنبهت أن أصوات صرخات تأتي من الخارج .. صديقها الساعى العجوز انشقت الأرض عنه يتمتم متهيا بأيات من القرآن الكريم ويشدها من وراء المكتب لتجرى إلى السلم قبل أن تسقط البناية - لما قاومته .. تركها وهروا

■ الزلزال ■

واختفى .. والبنائيات تعود إلى أماكنها وما فى المكتب من تماثيل وكتب تنأثر وملا الأرض والناقذة تنأى لها بالشارع ممثلاً بالبشر - فهمت أن الأرض هذه المرة هى التى أصابها الدوار .

هرولت إلى خارج مكتبها تطمئن - نفر قليل عاد .. المجموع الأكبر هرب إلى مساحات الخلاء بعيداً عن البنائيات الأسمنتية الرابضة .. من يدري قد تعاود محاولتها المجنونة للانفصال عن الأرض وتواترت أنباء ماوقع وما تصدع وأعداد من القتلى والجرحى استحال الاتصال وأمتلات أسلاك الهاتف بأصوات يستحيل تفسيرها حتى ظنت للهولة الأولى أن الزلزال أحدث اتصالاً بسكان كوكب آخر .. استرد إرسال الإذاعة والتليفزيون أنفاسه بعد انقطاعه وأمتلات الشاشة بخطوط متعرجة كأنها مازالت تعاني رجع صدى الهزة الأرضية - وأدلى مرصد حلوان فى بيانها الأول أن قوتها ٥,٨ ريختر .. التابع الأول أعقب بعد قليل .. بصعوبة شقت طريقها وسط الشوارع التى اختنقت بالناس تتدافع إلى مساحات الخلاء بعيداً عن العمران كأن الكل يريد أن يذهب ويعود فى لحظة واحدة .. كالمعتاد لا بد سيضاعف الفزع والاضطراب نتائج الكارثة - كما توقعت وجدت ابنها فى فريق الدفاع المدنى الذى تدرب على أعماله فى برى الفخارين ينقلون إلى مستوصف الحى الإصابات البسيطة .. وينقلون الأكبر إلى قصر العينى وأنشأوا وحدة للتبرع بالدم ..

بدأت الأمور تهدأ .. عادت تشق طريقها إلى بيتها لتتابع النتائج وتنتظر تكليفاً من عملها بمهمة .. الشوارع أهدأ .. أرقام الضحايا والعمارات التى انهارت تتزايد .. الهرم يربض فوق هضبته ينبعث منه ذلك الإشعاع الخفى الذى يجعلها تراه وسط الظلام ومهما اشتد . شرفتها تنأى بالمشهد العبقري للغروب عنده .. الهاتف رغم تواصل تقطع خطوطه فى أغلب القاهرة يصدر دقات أقرب

إلى إشارات تحاول أن تتبين لها أى دلالات . الدقات متقطعة ولكن تحاول التواصل .. ربما استرد حرارته رفعت سماعته .. ران صمت ثقيل ثم جاء من بعيد هس .. حس .. كأنه تنفس متلاحق كمن يمالأ منفاخا بهواء .. شئ يحدث بالفعل داخل الأسلاك .. نادى تسأل عمن يختنق .. ومن أين يتكلم .. يسمعها أو لا يسمعها الهس .. أو الحس كأنه يأتى ممن يحمل جبل المقطم فوق حنجرته .. بدا لها الحس يصدر حروفا وأنها تستطيع أن تلتقط منه كلمات .

أنا السيدة من جبل حلوان .. مساكن المصنع - أتكلم من المكتبة ببرج مصر الجديدة الكبير .. جئت لبيع لوحات البردى - البنت وحدها فى البيت .. وأبوها فى وردية المساء - من تحت الجبل لا أعرف من أين كوة ترسل شعاع نور وهواء .. و .. وتلاشت كلمات أخرى لم تسمعها فى جوف صمت عميق .. نادى عليها .. كررت النداء لا استجابة .. لم يعد هناك حس ولا هس .. رسالة استغاثة حقيقية أم سراب أمل وسط المأساة .. انتبهت للتليفزيون يذيع أحدث بيانات الخسائر فى الأرواح والمبانى .. أحدث بلاغ إنهيار برج عملاق بمصر الجديدة - تحول فى ثوان إلى جبل من الأنقاض - بدأت إجراءات إنقاذ الضحايا .. هل جاءها نداء سيدة من هناك .. كيف تتكلم من تحت جبل الانهيار للبرج الشاهق كما وصفته الأخبار؟! لماذا تبدو لها هزيمة المستحيل ممكنة؟ روحها القديمة هل عادت لها؟! سيدة .. اكتشفت أنها تهذى بالنداء عليها وتسمع أصدااء لنفسها أو للصوت الذى استمعت إليه عبر أسلاك الهاتف تتردد فى فراغ ليل منير بقناديل خفية يتجول إليها الشعاع الهادئ ويرسلها الهرم فى ساعات بعينها .. قفزت الكبارى .. وامتألت سيارتها بالطاقة التى تريد بها أن تحصل على يقين بوجود امرأة تحيا وتنفس تحت جبل البرج

المنهار اسمها سيدة ومن قلب الموت أرسلت رسالة استغاثتها ..
المشهد المروع لم تشهده من قبل ولا فى أقسى أفلام الكوارث
الطبيعية .. استحالت الرؤية تماما وسط ضباب تراب الانهيار
واختنقت به الصدور - الصرخات التى قالوا أنها صاحبت
الانفجارات اللحظات الأولى للانهار تلاشت وحل محلها أصداء
أنين يبدو وكأنه يستجدى أنفاسا أخيرة للحياة ثم توارى كل شئ
وسط صراخ الأهالى الذين تدافعوا وأغلق بالبشر الميدان والطرق
المؤدية إليه - عمليات الإنقاذ لم تبدأ بعد وسيارات الإسعاف
والإطفاء والنجدة تحاول أن تشق منافذ لها..

سألت :

- هل يوجد بالبرج مكتبة ؟

وسط الهول حصلت على الإجابة بصعوبة :

- نعم .. تشغل الدورين الأرضى والمسحور .

إذن المعلومة صحيحة والصمت حقيقى وسيدة ليست وهما

جبل حلوان .. حى مساكن المصنع مع نفر من أهل البربا .

قلبوا الليل نهارا .. بيتها وزوجها وطفلتها وأهل الحى كلهم
سأهرون لا يعرفون لماذا غابت وأين موقعها على خريطة الأماكن
الكثيرة التى تذهب إليها .

- معى رسالة منها .

لا أحد يصدق إلا زوجها الذى يعرف أنها تتعامل مع هذه

المكتبة فى بيع رسوم بردياتها .

عدنا لمتابعة عمليات الإنقاذ .. فاحت رائحة الموت ونشر

الحزن خيمته السوداء - الدقائق تمر كدهور تجمدت بالرعب -

فشلت الكلاب اليابانية وبعثة خبراء أوربية وبدأت الجرافات تعمل

والجثث .. تتمزق . أبلغت قائد عمليات الإنقاذ بالرسالة التى تلقتها

من سيدة - وسط الجنون الحادث ظننى علامة أخرى من علاماته

- يبدو أن مشهد الموت جعل الرحمة تغشى القلوب وتخدرها
لتحتلم الألم - تعامل مع الحاحى برفق وأكد أن مراحل البحث
المتتالية كشفت استحالة بقاء أحد على قيد الحياة .. انقضى
يومان.. وزحف الثالث ميتا كعشرات الموتى الذين أخرجوا فمن
بقى بعد حيا ..

سيدة

نداء موجه مجهد محبط يرسل حبالا أخيرة لتشدّها وتصد
فوق الصوت وتقوى وتواصل الانتظار - أهالى الجبل لا يملون
النداء معى والبحث عن منفذ ربما أقرب إليها .. يردد عقلى
تساؤلات توسع طاقات الأمل للمعجزة التى لا بد قادمة .. ترى أى
طاقة ترسل الهواء والنور إليها - وهذه الطاقة فى مكان ما حولها
- أم أنها الطاقات التى تمتلكها العقول والأرواح التى بات الإيمان
بإمكانية تجاوزها الموت إلى حياة أخرى يقينا .. من أين يأتيني
هذا اليقين بأنها حية تتنفس وستخرج كمالك الحزين تتقافز فوق
الأطلال وتعلن إمكانية المستحيل .. ولكن من يدرك ويعرف السر
والشروط .. وهل الإمكانية تحدث بمعجزة إلهية بحتة أم تنضم
الشروط .

وأصل أهل جبل حلوان حكي حكاياتها كأنهم يطاردون بها
طيور اليأس ويملاون صدر الأمل بالحياة ويدفعون دهور
الانتظار الثقيلة كلما تراجع الوقت وارتفع صوت يقول - حتى
الجثث خرجت كلها .. كيف يبقى أحياء ..

وأخر مهندس من مهندسى الأجهزة الحساسة لرصد الأصوات
فى الأعماق البعيدة يستعد لجمع أدواته والانسحاب ناشدته أن
يعطى سيدة فرصة أخيرة . كان قد سمع منها حكاية الرسالة
التي تلقتها ألف مرة ولكن لا بأس من مرة أخرى .
ترجوه .. تهدد أن تأخذ الأجهزة بالقوة وتواصل.

- ولكن بعد ثلاثة أيام مستحيل .

قالت له مخلوقات البرابي لا تموت فالكذ والإخلاص والوجع والصبر والألم و .. كلها تربي رثيتها تربية خاصة فتلد الهواء من صدرها وتتنفس .. وهي تحرث وتبذر وتسقى وتطرح الثمر نما لها فى مكان الذراع والقلب والأنف والعين والعقل ألف .. سيدة شجرة الجميز المقدسة التى تحتضن الماء والهواء بداخلها وجذعها موصول بالسماء وجذورها فى مركز الأرض .

أشفق على خرفها وعلى نهر التوسلات القادم من عيني طفلة تعلقت فى ذراعها - أعاد الأجهزة وأعاد الجس باتجاهات جديدة ناحية الجدار الخلفى للمكتبة .. وهى تشجعه وتعاوننه تقسم له ولها - لو أنها ابنة أصيلة لكل ما جاءت منه ستصمد وتجبب وتخرج بالعلامة .

عاد الميدان كيوم الحشر والناس تتجمع على النبأ المذهل يبدو أن هناك بالفعل حيا مازال يتنفس .. الصيحات والتكبيرات ترج الميدان ورأس يطل من فرج شق خفى وسعوه بالآلات رغم إغمائها كان طرف إصبعها مازال يحفر بوهن . وهج الفرحة طمس تفاصيل بقية ما حدث ولكن التصق بحدقة العين مشهد خروج سيدة صحيحة بلا خدوش ورفعها إلى سيارة الإسعاف ومشهد الناس تتدافع وتتلاحم لتقدم لها يدا .

بين كثير مما قيل وحكى عن لحظات الخروج عادت المعجزة تختلط بالأسطورة .. اتفق جمع كبير أنهم شاهدوا فوق بقايا الانقاض طائرا غريباً لم يروا له مثيلاً من قبل ظهر فى الفجر يتقافز فوق نبع ماء ولا يعرفون من أين جاء .. قال قائل منهم أنه العنقاء الذى سمعوا عنه فى الحكايات بمنقاره الطويل المستقيم وريشتى رأسه الممتدين إلى الخلف تحمل جسده الرشيق بساقان رقيقتان لم يروا أطول منهما .. جدة عجوز جاءت مع الخلق - رغم

عيونها غير المبصرة أقسمت أنها رائته يومها مثل ما ظهر فى صباحها فى أيام لها موعد .

يعيون مفتوحة وعقل واع رأت ما لا يفسر إلا بمعجزة أو بأن يفهم ويستوعب المعنى عندما لا يكف المعلمون المخلصون فى مدارسهم والنسك فى صوامعهم والكتاب فى أوراقهم وعلى شاشاتهم وأسواقهم وساستهم يؤمنون ويعرفون أنه لا ينجو من الطوفان إلا من شرب النور وعلم وتعلم وعلم وكذب الزمن الفاسد وضده جدف .. انهم ينمو لهم عظام لا تتكسر ورثات تلد الهواء وتتنفس وعندما تقع الصروح الواهية يخرج كل من شرب النور حيا .

وهى تكتب بالكمبيوتر سطورا ليست أخيرة .. من الحدث الذى حدث .. والأحداث التى يتكور بطن الأرض بحملها ..

قال لها ابنها :

- هل بالإمكان أن أشارك وأكتب جملة يبدأ بها الفصل القادم .
قالت :

- نجرب

إنهم يقولون عنك يا أوزوريس .. ولو أنك ترحل إلا أنك تستيقظ ثانية - ولو أنك تموت إلا أنك تبعث مرة ثانية .. قف .. انهض .. ايزيس تحبك .

امسراق

يوتيسو

ست عيوش

بجدية لا تناسب أعمارنا الصغيرة كنا نفعلها حبا
فى جدتنا .. أن ننام بعين واحدة ونبقى الثانية
مفتوحة ترقب الكون وتنتظر الضوء ولو استطعنا
لذهبنا نأتى به من وراء البحر .. فقد أصبح يقينا أنه
طالما هناك نور فستنا عيوش لن تموت .

لا نحتاج نداءها علينا ولا نفهم ما تقوله ستنا أن النهار والنور
يناديان عليها وما إن يطل الفجر حتى نسمع إيقاعات عصاها تدب
فى باحة السطح الواسعة وصريير باب الحمام وصوت إفراغ مياه
وأصدق أنها لأبد فى الليل وكما تقول لنا شربت البحر وقايلت
الجنيات وعرفت منهن كل ما نفعل ونخاف أن نكذب لأنها لأبد
ستعرف وإذا غضبت ستحطم رؤوسنا بعصاها . هذه العصا التى
تعود من دورة المياه تتساند إلى ستنا فقد حفظنا منها أنها لا
تستند إلا لمن خلقها .. وكنا لم نخرج من قشر البيض كما كانت
تصفنا يوم جاء ابنها موافى بعد غيبة من غيباته يلوح برزمة
أوراق خضراء يطيرها كالعصافير فى الهواء ، ويقول لها إنه قد
آن الأوان أن تستند إليه وتعرف أنها أنجبت ولدا ليس له مثل -
وستى تقاوم محاولته لاحتضانها كادت كاميرته المعلقة فى رقبتة
أن تفتح رأسها ودفعته فوق وقع على ظهره ودقت عصاها فى صدره
واستندت بمرفقيها فوقها وقالت له :

- من يستد الثانى ياابن الزوانى - أخبرك يأتينى بها البحر والريح والطير وعكارتك يطفح بها الناس وحكايات البنات والضيوف والصور وما يحدث فى عشش الجميل بعد أن تتغطى بالعتمة وتبخها .

وهو يجمع القطع التى تناثرت إليها آلة تصويره كانت تواصل ضربه فأخذ السلم قفزا ووراءه أرسلت لسانها وأقسمت أن تقطع رجله لو عاد .. وعندما سافرت إلى أمى فى زيارتى القصيرة لها فى بيت زوجها وسألتنى عن جدتى قلت لها « أصبحت زوانى » فضربتنى رغم أننى حكيت لها ما حدث بين ستى وابنها - وقالت لى « إياك أن تنطقىها ثانية أو تنطقين بما لا تعرفين » .. وخفضت صوتها وقالت لصديقة لها اعتدت أن أرى بينهما فنانجين قهوة مقلوبة :

- قالوا وقالت إنه ليس ابنها .. وإنها جاءت به من الملجأ .. ولكنه ابنها أنكرته لما تعبت من شقاوته وخابت فى إصلاحه وسمعتها تقول ابن الكره والغصب ابن حرام .. وكل عيل له أب غاب أو أم كانت تأخذه فى حضنها وتربيته وتشتد عليه كأنه الولد كما تمنته .. الله اعلم.. يبدو أنها بقدر ما تعبت وانكوت بالنار انكشف عنها الحجاب .. كنا نسمع منها ما يجعل الرأس يشيب رغم أن أكثره لا نفهمه .. والغريب جاءت الايام بما جعلنا نصدق أنها كانت تقرأها أو تحسها أو تراها بعين داخلها وكانت تقول إنها من سلسال ذاهب وسلسال قادم فى كل من شرب النور وفهم وعرف .. وعلى كل ما كانت تفعله من عجب كنا نخشاها ونحبها ..

وأشارت أمى إليّ وأكملت لصاحبتها :

- بعد طلاقى من أبيها وزواجى وجدتهما - هى وجدتها تحتاجان بعضهما .. الحقيقة تمنيت أن تكون البنت من سلسالها

و...

تنبّهت أمى أن انشغالى غير حقيقى بأوراق العب فوقها بأقلام ملونة - فخفضت صوتها أكثر وواصلت وشوشتها لصديققتها وكانت محاولاتي لفك ألغاز العالم والعثور على إجابات تريح رأسى المريض بدا أن يعرف ويفهم قد حولتني إلى جهاز التقاط لكل ما يحدث حولي .. واختلطت جدتي عندي بالبحر وأساطيره.. ومثل هوسى وهربى لاحتمى بالبحر واختبئ بين موجاته ساعات النهار بطولها كان حبي لكل ما تفعله وتقوله جدتي .. وحتى أن طلاق أبى وأمى كان معناه الوحيد أن استقر فى بيت ستى وأستريح من خناقاتهما ونقلت أشياء القليلة فى حقيبة صغيرة إلى بيتها وكان من البيوت الخشبية العالية - يطل على البحر وشاطئه الطويل ورماله الناعمة البيضاء ونخيله الأفرنجى الذى كانت جدتي تعشق طوله ورشاقته وتقول إنه كانت لها قامته .

وكانت تيجان النخيل تداعب السحاب وتطل من شبابيك البيوت تتفرج على ما يحدث داخلها أما نحن فلا نستطيع الفرجة إلا بعد أن تنام جدتنا .. كنا نصحو على أطراف أصابعنا وتخرج نشوى - ابنة عمتى فساتين ستنا.. وتقف أمام المرايا تبدل فيها وتدهن وجهها بأصباغ عثرت عليها فى علبة قديمة من العلب التى تملأ الدولاب .. وكانت هوايتى أن أجلس داخله وأخذ فى يدى بطارية اليد الصغيرة وأقلب ما فيه من مشغولات فضية وعلب ذهبية مبطنة بالقطائف الملونة وفصوص وأحجار وقطع فراء صغيرة ومروحة من ذيل طاووس وقبعات لها ذبول وأغطية شفافة وأشياء حكّت ستنا أنها ارتدت منها فى احتفالات بورسعيد بمجىء هدى هانم شعراوى وصفية هانم زغلول .. وما أتفرج عليه فى دولاب ستى الكبير بضلفه الضخمة ومراياه البيضاء

يحول ما اسمعه من حكاياتها إلى صور تتحرك أمامي وكأنها حوادث جديدة تطل من شبابيك صندوق الدنيا وبين أحلى ما رأيته من حكاياتها إنها كانت من فريق المقاومة النسائية الذي رتب أن ينزل القاهرة ليشارك هدى هانم خطة خطف سعد باشا والعودة به من منفاه في جزيرة سيشل - وقالت لنا إن بين أوراقها في الدولاب خطابا بإمضاء الزعيم يحمل تحية وسلاما لنساء بورسعيد وعلى وجه الخصوص لستى عيوش - وكتمت نشوى ضحكها - وكان لسانها طويلا مثلها ولما ذهبنا إلى فراشنا قالت لى :

- سمعتم يقولون كبرت وذهب عقلها .

● وتعاركنا بالأيدي حتى ضربتنا ستنا .. وربما المرة الأخرى والوحيدة التى ضربتنى فيها يوم حاولت أن أحسب داخل الدولاب عدد أمتار الدانتيل الأبيض الذى مازالت تملأه وكانت تقول إنها ثوب زفافها الذى جلبه جدى عبد الله من الهند مطرزا بزهور معطرة مازال عطرها الذى له رائحة المسك تملأ الدولاب وخيوطه الذهبية لم تصدأ من يومها .. ولم أستطع فتح الباب من الداخل وأوشكت على الاختناق ودققت بعزم حلاوة الروح وفتحت ستى وأوجعتنى بلسانها وبعضها ورغم ضربها فكأننى ارتحت يومها أن سرى انكشف ولم أعد أكذب عليها .

● وستى تمسح بيدها رأسى نخله تطل من شباكها وتحرص على سقى رأسها إذا غاب المطر عنها ، سمعتها تتكلم وسارعت إليها أسألها ما تريده .. قالت لى إنها تحدث نخلتها وعرفت منها أننى أستطيع أن أصاحب النخل والبحر والطير والشجر .. وفى ساعة من الساعات التى يصفو مزاجها ويرق وتسكن وتصبح مثل البحر الطيب قالت لى إننى أقرب العيال شبها بها .. شاطره

ووحيدة وحقانية وقوية ولا بد يوما سأعرف مثلها أقرأ القادم
وأأتى بالبعيد شرط أن يكون النور طالعا - ولم أفهم شرطها
وكفتنى فرحة أن أكون مثلها .. وأكثر مما كبرت طفولتى
بانكسارها المبكر تضاعف عمرى باجتهادى أن أفهم وأتعلم
واقترب منها وأجمع النور لها وأجوشه فى حصالتى الفارغة
وأخرجه عندما تكون العتمة بلا قمر أو عندما تغيب الشمس وراء
الشبورة ففى النور تتبدل ستى وتضحك من قلبها .

وكما تقول النور يشرح صدرها ويرم عظمها ويعافئها
ويشفيها حتى أصبحت أصدق أنها مع كل نهار جديد تولد شابة
وعفية .

ومثل انضباط ساعة الحائط الضخمة التى لم أرها تضبطها
ولا أذكر أنى رأيته تتوقف أبدا - وكانت تقول إنها كانت لجدى -
كانت تفعل جدتى

- فبعد أن تغادر دورة المياه تكون قد توضأت فنأتى لها
بسجادة صلاة حريرية من شوارها الذى كانت بقاياها تملأ السطح
والحجرات الأخرى - وكان يحكى عن أيام عزها - التى كانت قليلا
ما تتحدث عنها - وعلى سجادتها الجميلة التى تمتليء بالزهور
تسجد وتطيل السجود فتتفتح الزهور وتمتليء الحجرة بعطر
الزهر - وتهلل روحى وأسارع لأرتب فراشها وأعد وسائدها التى
لها ملمس القطن ورسوم طواويس وببغاوات - وعلى أكبرها
يتمدد فى دعة أسد تداعبه لبؤة - وأكمل أعداد جلسة جدتى فوق
كنبته التى وضعتها تحت النافذة الواسعة والتى يدخل منها البحر
والبوغاز وطرف البحيرة من الناحية وتمد ساقىها اللتين تعلق
جلدهما فوق عيدان كبريت .. وتفرد ذراعيها وتدهنهم بالشمس
وترقب البحر وتقصت له وتقول إنها تعرف منه ومن النوارس

حكايات الناس وأخبارهم .. وتجس الريح وفي الشتاء عندما تنادى علينا لنجمع الغسيل من مناشره فى فضاء السطوح الخلفى بعدها بقليل يسقط المطر .. وتنصت جدتى للموج ولما تقول إنها حبلى بالغدر نعرف أنه عندما يكتمل الظلام سيغرق الشاطئ ويحطم كبائنه الخشبية .. وتعبىء أنفها بالهواء القادم من ناحية البحيرة وتحبسه فى صدرها ثم تطلقه وتقول :

- مازال بيننا وبينهم زمن ..

وتبسم وتحوقل ولا بد أن تنهى الكلام بالصلاة والسلام على النبى بعد أن تطلب منه أن يشق بيننا وبينهم بالعسل واللبن الحليب .

وأسأله : من هم يا جدتى ؟

وعلى قدر حدة بصرها كان سمعها ثقيلا وتقول دون أن تسمعنى :

- من بعيد أصبح للماء كدر وزفر وملوحة ..

وأضمه إلى ما لا أفهمه وأجمع سجادتها وتذهب إلى نافذتها وتجلس على كنبتها التى سبقتها إليها الشمس وفرشتها بغطاء منسوج من خيوطها وأتى بإفطارها اليومى من الجبن الأبيض العذب والشاى بنعناع أخضر أقطفه من حوض السطح والعيش الأسمر الذى لا تمضغه إلا جافا وساخنا بعد أن تحصصه فى فرن حجرة الكرار . كانت تقول دائما إن لها فك أبيها العريض وأسنانه القوية .. وكل مرة كنت أنصت لأحاديث جدتى عن أبيها كنت ادعى السمع بها لأول مرة لأسمع وأعرف الأكثر عنها وعنه ولتفرح فقد كانت عندما تحكى عنه تعود طفلة تلعب على رصيف الميناء وأتذكرنى وأتذكرها نتقافز على إفريزه .. واختلفت حكايات كثيرة وزادت ونقصت فى كل مرة استمعت إليها إلا حكاياتها عن

أبيها وحكايات الآخرين عنه ، وإنه كان من العائلات التى أسست المدينة وأنه كان مشهود لهم بالحق والعزم والعلم .. ولم يكمل جدى تعليمه فى مدرسة المهندسخانة ليتركب البحر وراء تجارة أبيه ولأنه كان وحيد أمه على بناتها زوجها بعد الابتدائية وملا لهم البيت بالصبيان وقالت أمه أن دعوتها استجيب فى ليلة انفتحت لها طاقة القدر .. وتعود من سرحة طويلة ونفس عميق تأتى به من بعيد لتقول إن أباهما ورغم الزوجة والبنين ورضا أمه وإقبال الدنيا عليه لم يذق لها طعما حقيقيا إلا لما أحب « الورد » - وكنت أعرف أننى أحمل الاسم عن جدتى الكبيرة أم عيوش التى أحبها جدى الكبير وتزوجها على أم أولاده .

- هيبه ... وما بعد يا ستى ... ؟

ولو بامكانى أن أقفز فى حلقها وأخرج الحكايات دفعة واحدة لفعلت أى شىء لتواصل الحكى .. وأجىء لها بصينية قهوتها وكوبها الفارغ لتملاؤه بالشمس ويطول صفاء مزاجها وتواصل حكيها وأطل على البحر وأحاول أن أعرف كيف تقرأ المكتوب فوقه - فهى تطل وتطيل النظر إليه وتقول :

- حكوا أن ضرة الورد فرت الغيرة كبدها - فالحاج أحب زوجته الصغيرة وأسكنها ضلوعه ويا سبحان الخالق الوهاب قالوا إنه أودع نفسه فيها فولدته الورد من قلبها فى صورة بنت اسمها « عيوش » .

ولا بد كلما سمعت القصة أن أصبح أسألها :

- أنت يا ستى ... ؟

ولا تسمعنى وتواصل قراءتها للمكتوب على وجه البحر ..
- ولما أصيبت الضرة بحمى الغل كادت للورد وسممت أيامها وسخن - واحتبس حليب صدرها ، وكان الحاج أعز على المحبوبة

أن تذكره بوجعها فرحلت ساكتة على همها وعيوش مازالت ترضع .. وحكوا أن الضرة لو عرفت كيف سيحب الأب ابنته اليتيمة لعاشت تخدم أم عيوش وتحميها - فبعد موت الورد اعتزل الحاج الدنيا وأعطى نفسه للوليدة وللبحر وتجارته .. ولم يقصر في مصروف بيت أو ولد ولأجل خاطر عيوش فتحو بمساعيه أول مدرسة للبنات في الناحية - والتقط لعيوش أول صورة قبل أن تكمل الرابعة بعد أن أجلسها وراء مكتبه ووضع على رأسها طربوشا أحمر صغيرا قال إنه تحية لذكائها ورفض أن يصورها على هيئة الصبيان كما كانوا يفعلون أيامها مع البنات .. وكانوا يحكون ويتعجبون فكأنه كان يعرف إنه لن يطبق أحزانه الثقيلة فحتى أكملت اليتيمة العاشرة كان قد سقاها الدنيا وسافر بها وشرق وغرب وكان كبار البلد يحكون نوادره ويضحكون لما يسمعونه يقول إنه يملأ بنت قلبه بالنور ولو بيده لجاء بالشمس وأسكنها داخلها حتى لا تعرف العتمة سكتها .

ولا أكاد أكمل الفرحة بصورة بيت للشمس تسكنه في صدر ستي حتى تظلم الدنيا حولى عندما يرتجف صوتها ويخفت ويكاد يغيب في حلقها وهى تحكى كيف مات الحاج واليتيمة صغيرة لا تعرف معنى الموت ولا صدرا حنوننا غيره .. وبكت عليه المدينة وتناقلت أفضاله ثم تاهت سيرته وسيرة ابنته وسط الأيام .. ويروح صوت جدتي وتقه الكلمات على أذنى وأخاف عليها ولكن أتذكر أن النور سيداويها وأجىء بكوب الشمس فتقهم قصدى وتربت على كتفى .. ولما تمتص منه الشمس التى امتلأ بها .. أضحك وتضحك لأطمئن وأهدأ واحضر غلاية الماء لتغسل وتمشط شعراتها الخفيفة الناعمة وكانت ابنة عمتى نشوى التى لا تكبرنى بأكثر من عام تعرف أسرار لا أعرف من أين تأتى بها

وهمست لى أن الحناء هى التى تلون شعر جدتنا مع أنى لم أرها أبدا تدهن رأسها فهى دائما نظيفة بياضها يضوى مثل كل ما حولها تحبه مغسولا يبرق .. ولابد عندما يحدث المد ويغرق البحر الطريق أن تستيقظ ذكريات طفولتها وتحكى كيف أن نحر البحر يسافر بالمدينة ويوسعها وقد ولدت جدتى والبيت عند طرفه ولا يفصله شاطئ وطريق وكبائن وتذكر سير أحباب لها وتطلب منى أن أفتح كل زجاجة يلقيها البحر على شواطئه وأن أحضر لها الأوراق التى أجدها داخلها .. وعلى قدر دهشتى على قدر ما أحببت وتمنيت أن أحقق حلمها بأن أجد لها ورقة داخل زجاجة حتى قبل أن أعرف ما ذا كانت تبحث عنه .

ومن أكثر ما أحببت فى طفولتى كان بحثى داخل الزجاجات التى يرميها البحر على شواطئه ومثلها تجهيز كوبها الأبيض الشفاف ويدى الصغيرة تتحكم بصعوبة فى الصابونة النابلسى الكبيرة التى لا تغسل بغيرها أكوابها وطاقم قهوتها الأبيض المنقوش بحروف مذهبة والذى يستقر إلى جانب موقد السبرتو الصغير فوق الصينية النحاس المستديرة وتختبر ستى بريقها ونظافتها بانعكاس صورتها فيها - وأضع فوقها كوب الشمس كما أصبحنا نسميه واجلس أرقبه بعد أن تشرب ماءه بالزهر وتضعه فارغا على حافة النافذة ووسط سرحانها أو حكاياتها ترفعه إلى فمها وتمتص منه شيئا تلوكة وتمتصه مثل ما تفعل مع حلقات العسلية أو المكعبات الصغيرة التى تقسم إليها ربع الهريسة الذى اشتريه لها من الصندوق الزجاجى الشفاف الذى يجوب به عم الشحات الشاطيء طوال النهار وينصبه فوق الحامل الخشبى لنعطيه نصف الفرنك ويلف الهريسة فى ورقة بيضاء ولا بد فوقها واحد من أصابع زينب وخرطة بسيمة وفوقهم

السلامة والأمانة لستى وأظن دائما أن هديته كانت أكبر مما اشتريته ولكن فرحتى الحقيقية لأن محبة جدتى جعلت كل الناس على البحر أهلى وناسى .. وأرقب جدتى وهى تمص الهريسة مع أن أسنانها سليمة وترشف قهوتها وتشرب سيجارتها ولا تنس كوبها الفارغ .. تجس وتبتلع ما ليس فيه ومرات تقول الشمس دافئة ومرات حارة أخرى باردة - وفى أيام أجازاتنا وبعد أن ننتهى من واجباتنا تدعونا لنجلس معها ويشرب جسمنا الشمس مثلها وأضحك من نشوى فالشمس تجعل لحمها فى لون الأرنب بعد سلخها وتغيظنى نشوى لما تقول إننى أصبح سوداء كالعتمة وتحسم ستى بطرف عصاها اشتباكنا باللسان وتقول إن الحرياء شقراء وسمرء ولها كل الألوان - المهم ماذا داخل حجرة الكرار - وأقول إنه لم يعد فيها إلا بقايا من الأرز والزيت والسكر والسمن ولم تعد تمتلئ كما كنت أجدها ونحن أصغر تخبئ فى ألباننا بين جوالاتها وقطورها وصفائح جبنها وزيت زيتونها - وتقول جدتى وهى تشير بطرف عصاها إلى صدرى :

- اللون الحقيقى يأتى من خزين الكرار هنا .

وأعرف أنها لن تنهى كلامها إلا إذا قالتها لنا حتى حفظناها عن ظهر قلب ، ويا بخت من خزن النور قبل أن تاتى العتمة .

وتكرر جدتى شرب كوبها الفارغ ودهن رأسها وجسمها طالما الشمس تسكن حجرها وكنبتتها وعندما ينزل الغروب وتؤدى صلاته يعود عطر ورد سجادتها يملأ المكان .. وأرقبها لأتأكد أن لها ضياء فى العتمة وكان نور خافت يشع منها ينضم إلى ضوء المصباح الهادئ وبعد أن أنهى مذكراتى تطلب أن أقرأ لها فى كتاب من كتب جدى عبد الله وكانت مكتبته تملأ أقرب حجرة إلى حجرة جدتى - ولا أعرف لماذا كان يخليل إليّ كلما نامت فى

فراشها وانكشمت ولصقت ظهرها بالجدار الفاصل بين الحجرتين أنها تستند إلى جدى لتنام - وعندما كنا صغارا لم يكن مسموحا لنا بدخول مكتبته - وكانت هي تنظفها وتسقى أصص الريحان التى تملأ قاعدة شباكها - ولما كبرت أعطتنى مفتاحها المعلق فى صدرها لأفتحها وأدخل النور يغسل الكتب ويطيل عمرها - وأطيل فى ترتيبها وتنظيف زجاج وخشب مكتباتها الجوزية وسجادتها العجمية وأتأمل صور أجدادى فى براويزها الأرابيسك الخشبية - وأعرف أن هذا جدى الكبير - وهذا جدى عبد الله - وصورة الطفل الجميل - وجدتها فى برواز مكسور داخل أحد الأدراج لابد أن تكون لابنها - فلم أره ألا لما كبر وفى مرات زيارته القليلة لها ونسيت ملامحه .. ولابد أن لستى هذه الحلاوة الباقية فى كبرها لأنه كان لها ملامح أهلها .

وأرقبها وهى تتحسس الصور والكتب والمكتبات وتربت عليهم وكأنهم من لحم ودم وتلعن الزمن الذى أخذ معه حدة بصرها وروقان بالها اللذان كانت تقرأ بهما لنفسها - ويسبق نشوى لسانها الطويل وتهمس لما نتسلل فى الليل داخل صندوق دنيا دولابها وتقسم بالنعمة ورقبة جدنا أن ستنا لا تعرف القراءة ولكنها تريدنا أن نخافها لتقطع قلبنا فى المذاكرة .

وكننت قد سبقت نشوى إلى بيت جدتى ورأيتها كثيرا تتحسس كتب جدى وتقلبها .. وصدقت أن من يستطيع أن يقرأ البحر والرياح والمطر ويشرب النور لابد أن يقرأ الكتب .. وكانت فى اللياالى التى لا يطلع قمرها يتكرر سؤالها عن أخبار المدينة وعن القادمين منها وتطلب برطمان دهان قديما له رائحة كافور نفاذ تدهن به جبهتها وأرنبة أنفها العالية وظهر رقبتها .. وتزجرنا لنذهب إلى فراشنا فى الجانب البعيد من حجرتها التى تتسع لخيال

تجرى فيها .. وتطلب أن ننام بلا حس يصدع رأسها وتعصبه بمنشفة وجه تكاد تغطي عينيها ويتناوب كفاهها مفرودان الدق فوقهما وتفتح النافذة حتى لو اشتدت النوة وتشد الهواء شدا كأن باب صدرها مغلق وتحكى لأخرى كنت أظنها تجلس أمامها وأنها تراها وأنا لا أراها :

- فرحت اليتيمة لما ظنت بعد موت أبيها أن الدم لا يصبح ماء وأن أخوتها غير الأشقاء وزوجة أبيها أخذتهم بها الرحمة وأنهم أركبوها البحر فى الليل لتزف إلى ابن عمها الذى وعده أبوهما بها وأمنهم على وعده لما تكبر أختهم وتشبع من النور وتعرف وتقهم وتشدد ويأخذ عبد الله شهادته الكبيرة التى سافر لها وراء البحر .. ظنت المتعوسة أن السفرة كانت إليه .. ولما طلع النهار .. لا .. لم يطلع نهار أبداً لتلك الأيام .. طلع ظلام وظلم يوم ثان وعاشر .. وأيام لا تعرف عددها .. حبسوها فى قمقم لا تكاد تتبين ملامح الوجوه وما يحدث حولها .. ووسط حمى النفاس عرفت أنهم عقدوا لها على قريب لهم - لا .. لم يكن قريباً كان معرفة بحر وشرك مال وتجارة - أبعدها ليأخذوا ميراثها من أبيها الذى قسمه بينها وبين البنين وزاد لها نصيب أمها فلحس بقية عقلهم - حتى كبار البلد غضبوا وقالوا : « حل بإبنته عقاب كسر الأصول وشاركوا فى الظلم بالسكوت عليه » .. وفى خان كبير كأنه المسافر خانة القديمة .. الوجوه والحركة كثيرة والصادر والوارد أكثر والسراديب والسلامك والحرملك تمتلىء برجال ونساء وبضائع وبيع وشراء .. والسوق مفتوحة لكل من يطلب ولكل ما يطلب والمشترون يقبلون .. وكل شىء مباح وراء الستر وتحت الغطاء بشرط لا من سمع ولا من رأى .. وشمت بنت الورد أول ماشمت رائحة العطن والزفر ومن طول ما ضربها الغريب

شج رأسها ومن يومها وضع نار الصدع فيه - ولا نفع فيه عشب ولا طب ولا حجاب « الشيخة مسعود » - لا أنكر اسمها ولا سيرتها بالتحديد - وما بقى فى ذاكرتى أنها كانت تداوى بالأحجية والتعاويذ وتزيل الأعمال والكروب وكانوا يسمعون صوت سيدها الطيب يخرج من فمها ويجيب حاجاتهم - وكان اسمه مسعود - فاشتهرت به الشيخة وأقسمت ستى أن شرخ رأسها زاد لمامسته الشيخة مسعود - وقالوا إنها تهذى وطلبوا لها السماح وأقسمت أن نار رأسها لم يبردها إلا شرحة النور للعين وغسيله لما فى القلب من هم ومن حكيها عن اليتيمة فى غربتها كنت قد عرفت أنها احتملت وصبرت لأجل الولد وعينها على الباب المغلق تختبئ وراءه وهى تدبر ساعة للهرب - سبحان الله - تقول - كانوا يستحمون بالعطور ورائحة العطن تفوح .. والغريب يريد بابها وسكنها مفتوحة ويقرب الولد منها ويبعده عنها لتمتثل وتلين .

- ولما فاحت رائحة عطن قلبه تركت له الولد وفرت - ظنتها بلاد الله لخلق الله فلن تجد مرة ثانية أرضا ولا ناسا تعرفهم . ولكنها كانت بلاد الله لعبد الله الذى قلب الدنيا عليها .

- وتسكت ستى ولا تسكت عن حكيها إلا وأكاد أجن فأريد أن أعرف أكثر وأكثر عما قيل وما بعد ولكن دائما عند سيرة جدى يكون صوتها قد رق وذاب وتبدو كأنها تقرح وترتاح حتى لا تستطيع الكلام .. ولا أنام إلا بعد أن أطمئن أنها أغلقت شباكها ولصقت جنبها إلى حائط جدى وانتظم صوت أنفاسها - وبهدوء لا يقطع نومها الخفيف كالقطط كما كانت تسميه أخوض معركة لأخذ نصيبا من الغطاء الذى تحاول نشوى أن تأخذه لها وحدها وأضع وسادة بينى وبينها تحمينى ضرباتها وحركتها الثقيلة

وهي نائمة بطول وعرض السرير الكبير الذى كان على وسعه
تعتبره مثل الدنيا الضيقة عليها وكنت أنا وهى آخر من بقى من
بنات وصبيان العائلة وكان يأتى بنا إلى بيت ستى أجازات
الصيف أو ما حدث بين أبى وأمى أو فى بيت نشوى وكانت بنت
أصغر عماتى ولأن عمتى الصغيرة كانت نفشة وغندورة كما لم
ينطقوا اسمها بغير وصفها بالاثنتين فقد لحقوا وزوجوها بأول
رجل تقدم لها بعد موت أبى نشوى التى هربت من قسوة زوج.
أمها إلى بيت جدتنا وكانت تنادىها الغندورة الصغيرة وبنت أمها..
وكانت دائماً تلعن ساعة جاءت عندها لخروجها الكثير وغيابها
الطويل بينما كانت مكانتى عند ستى تكبر وأنا أحاول أن أشرح
لها ما بدأت أفهمه من كتب جدى وكنت أستعين بمدرساتى
ومدرسينى .

وأجد فى عيونهم دهشة وحباً واهتماماً بى - وأظن أن واحدة
من مدرساتى قالت لى كلاماً غريباً معناه أنى سأكبر ويعلو
شأنى.. ولما نقلته لجدتى وأنا أقرأ لها فى الليل قالت :
- إذا صح الزمن ولم تنم قوالبه وتقوم إنصاصه ..
ثم سرحت وقالت :

● رائحة الملوحة والكدر والزفر تهب من بعيد.

- وكنت أظل أقرأ لها حتى تدمع عينائى فقد كنت أضع نظارة
طبية سميكة منذ كدت أفقد عينى لما كنت مع أولاد وبنات حى
البحر بنشارك فى مشاغبة الأبواب الأمامية لمعسكرات الجيش
الإنجليزى لنخلى مؤخرة المعسكر ليتسلل الفدائيون .. ونحن
نسارع بالفزار كأسراب طيور البحر - وفى شارع البحر الطويل
الذى كانت بقايا سيارات العدو المصفحة تقطعه فى سرعات
مجنونة ضربتني واحدة منها وفى المستشفى والضمادات تحيط

برأسى وأنا أبعد طرفها لتلقط أذنى ما يدور من حديث حوالى وأقارب أراهم مرة كانت تقول جدتى لا تجمعهم إلا المصائب .. سمعتهم يقولون إن عقلها ذهب من أعمال الولد موافى وعرفت أنها تسكن السطح لأنه باع بيت أمه مفروشا بالشبر واختفى .. وفى مناسبة أخرى لاجتماع أسرتنا بعد العدوان الثلاثى بسنوات والبيت الذى تصدع بآثار الضرب وقع على أقارب لنا - مات بعضهم وجرح آخرون - ووسط اللمة حول أسرة الجرحى عادت سيرة موافى على السننهم ولاحظت هذه المرة أنهم يتهامسون ويتلفتون حولهم كأن الجدران ستنشق ويخرج لها منها عفاريت تقبض أرواحهم

كان صعبا على يومها أن أميز هل وصول أخبار ابنها تجعلها تشم للبحر عطنا وزفرا .. أو عطن وزفر يحدث فى البحر أو البحيرة وموت الأسماك الذى اكتشفناه فيما بعد والصرف الصحى فيها وانتحار الدرافيل على الشواطئ وتلوث الماء بقتل الأحياء فيه كان ينبؤها - كما كانت تقول - إن الولد هناك يكبر .. وعلى قدر ثقل سمعها ومحاولاتهم إخفاء أخباره عنها كانت تعرف أنه أصبح محصورا مشهورا وفى العشش والشقق يشارك فى تصوير البنات وفى تجارة لبيع شرائط وصور سرية لا يفسرون ما فيها .. ولا أعرف لماذا أحسست أن خوفهم ازداد وأصواتهم انخفضت أكثر .. وأيضا ازدادت حالات ربو صدرها واشتبكت مع سعال سجاجثرها التى تلف دخانها داخل أوراق رقيقة بيضاء تقطعها من كراسة صغيرة اشتريتها لها من كشك «عم إبراهيم» الذى كان له رأس اخناتون المرسومة فى كتاب التاريخ .. واعتقد كان له عمره أيضا وكان دائم إرسال السلام لجدتى مع كراسات البافرا وعلب دخان «ماتوسيان» وحلقات

العسلية وما أكثر ما همست تشوى « كأنه أحب ستنا أكثر من جدنا عبد الله » .

وما أكثر ما جلسنا إلى عم إبراهيم تحت شمسية البحر الملونة التي يفردنا ليلا ونهارا أمام الكشك ويقول إنه تركها مفرودة منذ كان الكشك عند الشاطئ - فإذا جاءت الشمس ظلته وإذا جاء الموج حولها إلى عوامها وركبها ويحكى لنا أنه كان صديقا لجدنا بالروح وأن جدنا أحبها منذ وعتها روحه تنام في حضن أبيها - ووعده عمه بها إذا وجد القبول والرضا عندها وكبر على قدر قدرها وتعزیزها - فسافر عبد الله مطمئنا ليتزود ويعود على قدر المحبوبة .. وعاد ليجدهم زوجوها فقلب الدنيا ووجدنا هائمة في الأرض التي أخذوها إليها فعاد بها .. وكانت التي عادت لم تعد عيوش التي أحبها - ضاع ابنها وعقلها منها وأخذ الباقي منها ما فعله أهلها وأخوتها بها وأصبح البحر والنوارس أصحابها والنور من رائحة أبيها .. وتمنى عبد الله أن يفقد حياته راضيا بشرط أن يعيد لها عقلها وابنها فركب البحر وراح وجاء به .. ولكن جاء بمن ... !!

يقول عم إبراهيم وهو يمضغ دخان سجائره - كان الولد قد شرب النخاسة والتلصص على اللحم العارى وبيعه - وحاول عبد الله مع عيوش أن يأخذ بيده .. كان الزمن فات وكبر وتبدل . حتى صدقت أن عبد الله جاء بغير ابنها ثم انكرت أن بطنها حملته من أصله .. ولما غاب عبد الله وغرقت أخباره في البحر وتأكد الولد أنه راح بلا عودة ولم يعد له كبير باع البيت الذي تركه لها يعقود مزورة للسكان وتركهم ينهشونها ويطمعون حتى في سطحها وشوارها الذي لا مثيل له .. لولا قوتها وجبروتها ومن يعرفون أصلها الطيب ويحبونها ويعيد علينا عم

إبراهيم فى كل مرة يحكى لنا .

- أضع الكشك عند بابها لأقتل ابن خسيسه يمد يده على ما بقى لها .

واشتبكت حكايات عم إبراهيم مع الحكايات التى كنت أسمعها من أمى وخالاتى مع حكايات كان الصيادون يحكونها عند البحر وكنت أظنهم لا يعرفون أنها جدتى .. وعرفت منهم أن جدى لما حصل لستو عيوش على الطلاق بالمحكمة صار الأمر فضيحة وأقسم البعض أنها ذهبت إلى المحكمة لتستر نفسها وادعت على الغريب الذى لم يتزوجها فوق نسائه الأربعة وأن الولد ابن حرام وعرفت أن أم جدى عبدالله أقسمت أن تقتل روحها لو فعلها ابنها الذى لم يدخل دنيا ويتزوج بمن فقدت عقلها وشرفها وعادت من الغربة بولد لا يعرفون له أصلا ولا فصلا ودخلت المحاكم حيث لا يدخل أبناء الناس المحترمة ومضغ الناس سيرتها وأصبحت على كل لسان لها حكاية مختلفة وأسرعت أمه وخطبت له ابنة المحافظ ، ولكنه تمسك بستى فطلبت أمه أن يختار واحدة إما هى وإما عيوش واختار أن يخرج ولا يعود وترك لأمه رسالة يستحلفها أن تسامحه .. ولعيوش رسالة وكتب لهم أنهم لو فتحوا عروقه سيجدون اسمها محفورا على دمه .. وحكوا أنه كتب لها من كل الموانى وكان إذا لم يجد من يحمل لها الرسالة يلقياها فى البحر فى زجاجة .. ولما تناقل البحارة والمسافرون عبر الموانى سيرة عذابه والعجب من حكايات عشقه استسلمت أمه ووافقت على زواجه .. وأكملت ستى شوارها .. وكتبوا له ليعود .. وقالوا إن الحاقدين عليه رغم عذابه ضيعوا الرسالة .. وإنه حتى اختفى آخر أثر له ظل يزدد أسماءها عيوش وعائش وعيش وعيشة وعائشة وكل ما نادى بها وهى صبية صغيرة يسابقها بين

القوارب فى المينا - وتذكر خالتي الصغيرة وهى تحكى كيف كانت وهى صبية تملأ مع صاحباتها جذوع الأشجار برسوم بعين تجاور عينا ليكتبن بالرسم عائشة وعبدالله .. وعرفت لماذا عندما تأتى سيرة جدى لأبد أن تطل ستى على البحر .. ولماذا يتكرر سؤالها عما يفعلونه بالرسائل التى يجدونها فى الزجاجات التى يلقوها البحر على شواطئه - ومن يومها وعلى كل شواطئ الدنيا التى يأخذنى عمل إليها أبحث داخل كل زجاجة أجدها هناك عن رسالة وكانت تقول إنه فى ليالى المد وعندما يكتمل القمر يمتلئ الشاطئ بهدايا الأمواج إليه وفى مثل هذه الليالى كان لا بد أن نصحو لنوره ويدخل القمر من نافذتها ليجلس ويتربع فى حجورنا ويطل البحر علينا وتتغير النسمة بعطر ريحان كانت مازالت تزرعه بيديها وتملأ بأوانيهِ الفخارية باحة السطح .

لا أعرف متى وصفت القمر فى اكتماله بقنديل البحر الميت وتحدثت عن اقتراب اكتمال عطن البحيرة وزفر البحر وعادت الحكى عن العرق الدساس وزرع الشوك فى البطن والأرض وعيال الغدر والاعتصاب وسلالة النخاسة وبيع اللحم وتصاوير إبليس المطبوعة على الأرض .. والزمان الذى يفسد ماء وملحه وعيشه وزاده عندما تتلبس « التصاوير الرأس وتشجه وتصدعه وتسكنه المساخيط والسخط ، وإن كان أحد يعرف آخر عنوان أو اسم لموافق .

وصاحت نشوى بشيء لم تكمله .. ولم تفلح تهديدات ستنا فى انطاقها وحلفت باليمين أنها لا تعرف له طريق .. وأقسمت ستى على غير عاداتها أن نشوى تعرف وأنها قرأت عليها العلامات وشاهدت بقايا دمان وجهها الذى تزيله فى بثر السلم وزجاجات العطر الرخيص و « شرقة » الدنيا فى عينيها .. ولم نتم للصباح

وستى تريد من نشوى أن تقر بالحق .. وهى تبكى وتقسم أنها لا تعرف ولا تفعل حتى صدقتها وغضبت من قسوة وشدة جدتى وهى تردد أنها ترى العلامات .. وحتى بنظارتى الطبية لم أكن أرى أو أفهم شيئاً .

ولم يتوقف هذا الذى كان يحدث بين ستى ونشوى وخاصة .. فى الليالى التى كانت تتأخر فى عودتها للبيت .. ومرة بعد تأديب بالضرب وجذب الشعر وكانت ستنا بارعة فيهما - ضحكت بنت عمتى وهى تمسح دموعها بطرف فستان من فساتينها القصيرة التى أصبحت تقصر أذيالها وتقصر أكمامها فى الخفاء وتقول لجدتى إنها أفعال الصابون الذى بدأ يضربه الغش وسوء الصنعة.. وفى الليل - وفى فراشنا الذى نتجاور فيه همست أسألهما :

- أين تغييبين .. ؟

- إياك أن تقولى لستنا .

- لا أريد أن أعرف فلن أستطيع الكذب عليها .

- لو تستطيعين قولى لها .. قريباً أخرج ولا أعود عندما يأتى التعيين اذهب لاستديو التصوير الصغير فى الجميل .. أرسلوا شريط صورى .. وموافى سيوصى على . زمان عندما جاء مرة ليأخذ شيئاً من دولاب أمه قال لى إننى نغشه وغندوره وأن وزنى أساويه بالألماظ والذهب ولما قلت له إننى أخاف من ستى ضحك على وقال إن العمل فى الاستديو محترم ومن تحب بلدها تضحى وتذهب للتصوير .. ومن تضحى تقبض ثمن إخلاصها .. وأن ستك وستى كبرت وعفى عليها الزمن وغادرها .. لا تكونى هبلة مثلهم .

لم تعد سنة واحدة فى العمر هى التى تفرق وبينى وبينها ..

أشياء كثيرة بدأت تفرق وتتسع منذ بدأت نشوى تكبر وتستدير ولا تكف عن الفرجة على صورتها فى مرايا دولاب جدتى البيضاء التى تمتد ضلفه بطول الحائط - بينما بقيت أنا على حالى وجهلى وخوفى وقلة حيلتى ، وكما تصفنى ستى دائما مقروضة بلا حتى بذرة رمان .. وبدأت ستى حتى فى قلب النهار تصمت صمتها الثقيل الذى كانت تلزمه عندما يكتمل سواد الليل وينطفئ القمر وتعتم نجومه وتأتيها سيرة موافى .. وكانت لها حالات نوبان وتلاش وكان العتمة محلول يذيبها ويخفيها داخله وازدادت نوبات ذهولها وبحثها الغريب فى خشب أرضية دولابها وثنايا جدرانها كأن له فتحات وبوابات لا أعرفها وعندما سألتها عما تبحث عنه زجرتنى وقالت إنها تطمئن على سلامة أخشابه فقد قارب على السبعين ومازال خشبة البندق بقوائمه النحاسية البارزة وملائكته وزهوره المجسمة ومراياه التشيكي تملأه من الداخل والخارج كأنه نزل من السفن التى جاءت به من دمياط وفضت أغطيته بالأمس فقط .

وفى نوبة من نوبات بحثى داخل دهاليز دولابها اكتشفت أن له بقايا مكملة محفورة فى الحائط وأدراجا سرية - وفى درج غائر منها فى باطن الأرضية وجدت لفافة معقودة بشريط أزرق أنيق تضم خطابات من جدى إليها وأعدتها إلى مكانها وتمنيت لحظة أستطيع البوح لها بسرها فلما طال صمتها وحديثها إلى صديقه ليلها والتى كنت أظن فى نوبات حديثها السادر إليها على زمن طفولتى أنها تجلس لمن تراها وأنا لا أراها .. ولما كبرت قليلا كدت أصدق أنها تخرف وأنه من علامات ذهول عقلها ولما ازدادت نوبات حديثها لها وأصغيت طويلا إليها عرفت أنها واعية لما تقول وأنها تعاني عقلا أصح وأوعى مما تستطيع أن تحتمله

أوجاعها ولكن خشيت عليها ثقل حزنها ونوبات صمتها الطويلة وضيق صدرها حتى الاختناق برائحة عفن وكدر البحر وموت البحيرة ونداءها المتكرر علينا لنلحق ونخزن النور قبل أن تكتمل العتمة .. وتقافز السر على لساني لأسعدها وأخفف عنها وكشفت لها مكنن خطاباتها التي طال بحثها عنها .. ولم أكن أعرف أنني أرفع الغطاء عن صندوق مليء بأسرار وأكاذيب يبدو أنها تعبت من طول ما حملتها أو أنها جنت من الغضب لأن سرا غاليا لها فضح ولا أعرف هل كانت تريد أن تخلص مما حملته عمرها أو كانت تريده أن يبقى لها وحدها .. وعرفت أن ستي لم تكن مثل البحر وحده وإنما لها مع البراكين قرابه فمثل ما قرأت في كتاب الجغرافيا انشق غضبها واخرج نارا في وجهي - ولما استجلفتها بجدي عبدالله ألا تغضب مني قالت إنه ليس جدي وأبي ليس ابنها وجدتي قريبة بعيدة لهم . وكانت في بطنها أرنبه لا تلاحق ولدها . وفي آخر سلسال عيالها سقط أبني عليلا . وقالوا ميتا - ورق له قلب الست عيوش وأخذته وطيبته بالبحر المالح - أيام كان البحر عفيا وقبل أن يمرض بالعطن والزفر - ولم يكن وجعي الجديد لقربي أو بعدى فكل يوم كنت ازداد شبيها بها وعرفت لماذا كانت لأسباب لم أكن أعرفها تشير بطرف عصاها ناحية صدرى وتقول البعد والقرب يأتي من حجرة الكرار - وأحلى ما سمعته في ساعة من ساعات صفائها التي أصبحت كخروج إبرة من جبل القش - وهى تطيل النظر إلى قالت لى - كأنها مرآة سحرية أطل فيها فاسترد عمرى المغدور به - أما وجعي الذى لم استطع أغرقه بماء البحر كله فهو أنى حتى عرفت كنت قد بدأت اعتاد أن يسقط كل يوم مما أعرفه ومما عشت عليه ورقة .

كانت رائحة العطن تزداد فتزيد ضيقها وربو صدرها -

وحكايات استديوهات موافى تملأ المدينة وهى تزداد انكسارا وصمتا - وأظن أنه بدأت مقاطعتها للنوم وجلوستها الليل للنافذة ترقب نهارا تقول إنه لن يطلع - واستشهد أبى فى غدر ٦٧ كما سمعتها فى الليل تنادى عليه وتأكدت مما سمعته منها رغم أننى حاولت كثيرا أن افسره بغضبها .. ولكن من الذى صنع بقية الحكايات التى صدقتها .. وماذا كان حقيقيا وماذا كان وهما فيما يحكيه من حولى .. وماذا خباؤه وسيأتى أوان لاكتشافه .. أصبح اعتياد تكذيب ما عشت عليه - لم يعد مدهشا لو اكتشفت أننى لست ابنة أبى فالأحداث أثبتت أن الأكاذيب بدأت تملأ أيامى مثل الكوابيس التى ملأت ليالى منذ ما حدث فى قلب عتمة الليل .

صور لى خيالى من كثرة قراءتى فى صفحات الحوادث وبحثى عن أخبار موافى لأطمئن فزعا اشدت عندها وأسئلة لا تنطقها أن ما يحدث هو عملية سطو مسلح على دولا ب جدتى وأن هناك من تأكد أن فى ظهر دولا بها كنزا مدفونا .. ونحن نفزع على اقتحام سطحنا ونبش حجراته وتتبين أن هذا البريق فى الظلام لأسلحة مرفوعة تتقدم أقداما ثقيلة وما داخل الدولا ب أصبح جبلا خارجه .. واحتجنا وقتا لنفهم معانى الكلمات الثقيلة التى تخرج من أفواههم - قالوا أن اسم موافى ورد بين موردي شبكة البنات التى كشفتها جريمة قتل حدثت فى البنائيات التى أستبدلت بها منطقة العشش ، ونطقوا أسماء غريبة لهذه البيوت أفلتت من أذنى ولم أستطع فى ذلك الوقت أن أجد الرابطة بين الأمان والحماية والوطن والبنات والنكسة .

والى جانب حائط بعيد دفعوا جدتى ليسكتوا ضربات عصاها التى لم تطل إلا الهواء - أسرعت إليها فتساندت إلى .. كانت ترتجف كأن زلزالا يهزها .. لا أعرف من أين جاءت بصوتها الذى

سمعت له صدى قادما من عند البحر .. قالت :

- الزفر فاح من زمن .. لماذا تحركتم الآن فقط ..

كادوا يأخذونها معهم لما حاولت أن تمزق ملابس واحد منهم وتبحث عن موافى داخله .. وتوسل عم إبراهيم ليمنعهم عنها بحجة كبرها ونوبات غياب عقلها .. وأظن أنه من يومها بدأ خلطها الليل بالنهار وغيابها الطويل والنور طالع وفزعها في قلب الليل بحثا عن حبة نور وكثر حديثها لأختها الطيبة أو لنفسها وهمماتها وهي تدقق نظرها الذي ضعف في شيء لا أراه أمامها .. كأنها تقرأ من فوق السبورة التي كانت تقول إنها تجد الحروف مكتوبة فوقها داخل رأسها - وصدقنا لما كبرنا أنها كانت حيلة من حيلها لنقول الحق خوفا من أن نقرأها مكتوبا فوقها - ولم يعد ما كان هو شاغلها ولكن القادم بعد وهاجسها الدائم الولد لو اشتد عوده وعاد . وتقسم أننا سنتركه يشتد ويعود وسنقلع كل أخضر في أرضنا ونروى الشوك ونحصده .. وتلعن أبو جهلها ويطنها التي قبلت البذرة وسقتها .. وفرع ملوخية كان يفرغها .. وكنت أتحاشاها وأبكي وحدي وأنا أظن أن هذيانها وتخريفها اكتمل - فلم تكن ملامح القادم تشكلت لأعرف أنها كانت بالفعل تقرأ على سبورة حدسها ما لا بد كشفه لها النور الذي كانت تختزن .

ولا أعرف متى بدأت تستجيب لعشق نشوى للرقص فهذه مرحلة أخرى من عمرنا .. وأول ما لاحظت أنها بأصابعها المعروقة الطويلة التي بدت كهيكل العظم المرسوم في كتاب الصحة توقع إيقاعات لها حنين وشجن على ظهر الرق وتستحلفها نشوى أن تغنى فتقاوم .. ثم تستسلم وتردد تحانين ينتفض لها قلبي ويقع من صدري وأتماسك لما يسترد وجهها ملامح صبية

صغيرة وتختفى تجاعيده ويعلو صوتها على إيقاع السمسمية
 بأغنية للبورية التي خرجت فى الفجر للصياد وعشقه وتزوجته
 وأصبحت بنتا اسمها عيوش تظهر مع السراب للمسافرين
 وتسألهم عن طريقها بعد أن سرقوا منها البحر والصياد .. وبينما
 أبكى أنا على البورية ويزداد نشيجى مع ارتفاع تحانين ستى
 وإيقاعاتها الحزينة تتمايل نشوى وتدور كالنحلة وتحلق كالفراشة
 ويتحول ثوبها الواسع القصير بأدواره متعددة الألوان إلى أجنحة
 تطير فى الهواء وتدق بكعب حذائها المرتفع وتثن أخشاب البيت ..
 وأشد أطراف ثوبى الطويل وأحكمه حولى .. وساعتها لم أكن أفهم
 لماذا كانت جدتى تربت كتنفى ولا تكف عن مص شفتيها وهز
 رأسها والتصعب والتعجب .. وتسحب شهيقا عميقا من الهواء
 القادم من ناحية البحر وتطرده بسرعة وتقول :

– الوقت لم يعد طويلا عليهم ..

● وأسألها .. وكعادتها لا تسمع وتجيب :

– زاد العطن والزفر .. والأمواج حبلى بالغدر .

● وكثر حديثها للنوارس ولرأس نخلتها الذى كان قد قطع من
 زمن .. وكثر أيضا غمز وتصريح الجارة التى بدأت على غير
 عاداتها تحمل الأطباق فى المواسم وغير المواسم إلينا وعينها لا
 تفارق الدولاب وقطع طاقم الجلوس المذهب وخزانة الحائط
 المليئة بالفضة النادرة .. وتدور بينهم .. تتحسسهم وتقلبهم
 يلا خجل وتقول :

– أصبحت « أنتيك » .. تحتاج متحفا – تساوى الملايين وعندى

الشارى .

١ وبدأنا نعتاد غياب قطع من أغلى ما كانت تمتلك جدتى ولا
 نعرف متى وكيف – ورغم بصر ستى الذى أصبحت تستكملة

بتحسس طريقها فقد كانت لا تكف عن ترديد إحساسها بأن المكان يخنس وأشياؤه الغالية تغيب ولم يعد لها إلا رغبة واحدة أن تصمت وإذا تذكرت حنينها للحكى فوسط حكيها تذهب بعيدا وتنسى أنها كانت تحكى ويعاودها حنينها للضوء وتطلب فنجان قهوتها المحوج وأداعبها وأسألها إن كان معه كوب الشمس فتهمز رأسها موافقة فأتى بها ولا تمد يدها إليهما .. وتطلب أن تبقى النافذة مفتوحة حتى فى قلب النوات وسقوط الأمطار مادامت هناك نقطة ضوء باقية ولعنت أجدادى كلهم عندما تمسكت مرة بإغلاقها عندما اشتدت الرياح وكادت تقتلعها وقالت لى وهى تقسم باليمين :

— سيأتى زمان تشناقون فيه حبة الضوء .

● وصمتها يطول ... وصدرها يضيق برائحة العطن التى طغت على رائحة البحيرة والبحر .. وترفض حتى الأسماك المشوية التى كنا نعيش عليها أيام الأسبوع السبعة وتهجر هوايتها القديمة فى أن تقوم بشوائه بنفسها بعد أن تشقه وتملاه بخطة الكرفس والبصل والثوم والملح والكمون ونجلس أمامه فى فرن حجرة الكراز نعد أرز الصيادية .. سكن العنكبوت الفرن والصمت حجرة الكراز الفارغة - وأصبح الفول النبات بالليمون - حبات منه وجبتها الوحيدة وسط صيامها الطويل بعد أن كانت حتى فى نوبات مرضها المعدودة لا تقربه من فمها .. تعودتها تعرف أسألنى وتجيبها دون أن أنطقها وعلى كثرة ما سألتها لم تجب أو تلتف إليّ وهى تدور تثبت أركان السطح بأحجار ثقيلة لا تقوى على حملها وأسارع لأساعدها .. وأحاول أن أفهم ما الذى انفلت من جذوره وستأخذه الريح معها .

● نداؤها على نشوى أصبح عذبا ولم أصدق أذننى وهى

توصيها وتكرر وصيتها وتقول لها وهى تشير إليّ :
 - زمانك قادم يا غندورة .. لا تنسى أنها كانت من أهلك .
 ● لا أعرف متى انتهى الود بينى وبين جدتى وكيف أصبحت
 نشوى فتاتها المفضلة تغيب طويلا وتظهر وجدتى لا تسأل
 وتقول إنها واعية تعرف طريقها ولا خوف عليها ولا بد أن تكمل
 جملتها بإشارة إليّ أعرف أنها تعنى « الدور والباقي على خائبة
 الرجاء » .. فقد بدأت أسمعها فى الأيام الأخيرة كثيرا ثم لم تعد
 فى حاجة لأن تنطقها أو ربما أحسست بقدر وجع روحى منها ..
 وعندما أخذت نشوى حقيبتها ولم تعد كانت جدتى كأنها تعرف ..
 سألت فقط عن الساعة وهزت رأسها ودارت تثبت أركان السطح
 بحجارة جديدة وراحت فى صمتها الطويل وكانت تعود منه فى
 نوبات فزع تسأل عنى وتطمئن لوجودى وأنا أجلس إلى جوارها
 أذاكر ولا أغادرها إلا لمعهدى العالى وأعود فأجدها يكاد يطير
 عقلها كأن شياطين ستخطفنى .. ثم تقرأ آيات من القرآن وتردد
 تعاويذ وتصلى على النبى وتطلب منه أن يشق بيننا وبينهم
 بالعسل واللبن الحليب .. وأرتجف وأدخل فى أثوابى الطويلة
 وكتبى الكثيرة وأغيب فى مذاكرتى ولا تغيب هى طويلا فى
 صمتها وتسترد فزعها وتدور حولى وتلعن أبى وتقول ابنة العليل
 عليلة .. حتى ماء البحر لم يعد يشفى ولا يحيى كما كان .. ولا
 عاد ماء بحر .. غرقت البحيرة والبحر بالزفر والعطن .. ستموتين
 بخيبتك - تغندرى وتعلمى من النغشة يا عيدان القش .. زمانها
 قادم وزمانك يغرق .. ملعونة وسلالتك وكل الطيبين التى أتيت
 منهم سيدقونك على عنقك حتى لا يجدون مكانا لأختامهم على
 ظهره .. ويضعونك فى قفص ويقولونها عبدة لمن يعتبر كانت
 كاملة الأوصاف فى زمن النقص فيه زينة والعقل خيبة وصاحبته
 حزينة .

● جدتي التي أحببتها وأنا أترى في حضن محبتها ورحمتها وحملت أن أكون مثلها .. وأزيد ما نقصته وأعرف ماذا يفعل النور إذا اكتمل شربه وريه وأنجح وأتفوق لأقرب منها وأفهم وأقرأ لها كتب جدى لأتعلم ولأفوز بفرحة خفية تتقافز في عينيها بدأت أفهم معناها لما بدأت أكبر وقلبي يدق في صدري لكل ولد يتعقب خطواتي وعلى قدر ما أغضب بحق وترتبك خطواتي أتمنى لو ظل ورائي .. من كان يستطيع أن يجعلني أصدق أن هذا اليوم سيأتي وسدود وجبال بيني وبين جدتي .. لم أعد أفهم ما تقول .. ولم تعد تطبق رؤية وجهي .. ولا تطل علي إلا وكأنها ترى رعبا يطير بقية عقلها وتسالني عن موافى فأقسم لها أنني لا أعرف إلا أنه قبض عليه ومات في السجن .. فتغضب أكثر وتعلن خييتي وجهلي بالدنيا وتدور تثبت أركان السطح وتطمئن أن الأحجار في مكانها وتقول إن الحية تكبر .. وتكبر وضاق عليها جلدنا ... وستكبره وتوسعه وتلبد في الأدمغة وتحفر جحرها وتضع بيضها وتنثف سمها .. وستختنق الشمس وراء القمر وتطول العتمة النهار والليل وكل من لم يختزن النور سيندم على يوم ولدته أمه .

● كنت أرتجف وأنا أراها في النهار تسأل لماذا لم يطلع النور وكان اللون الرمادي يلون الأيام التي قصر نهارها وتكاد تظلم من منتصفها جمد الهواء وسخن واشتدت رائحة الزفر والعطن وفشل في علاجه جميع المعطرات وشركات النظافة العالمية التي استوردوها وأغلق الصيادون بيوتهم ورهنوا مراكبهم واستبدل بعضهم ركوب البحر بركوب الصحراء .. وقالوا إن بعضهم ضاع في السوق الحرة لما حاول أصحاب التماسيح والخزيرة أن يبيعوا لهم بحرا جديدا .. وبدا كأن المس الذي يصيب كل ماأراه

يحدث حولي ويصيب ستي رغم أنها قابعة وراء نافذتها لا تغادرها وعلى قدر ما أصبح لها من أطوار غريبة .. وما أصبح من بُعد بيننا وما استجد من شدة تعاملني بها فأبدا لم تذبحنى بالقسوة التي شهدتها فى تلك المغربية حتى خيل إليّ أنها لو فى ذراعيها قوة لمزقتنى وتاوتنى فى جوف الفرن وكما كانت فى يوم تتمنى لو فعلت ببذرة السوء والشر وكما كنت أسمعها عندما كانت تصحو الليالى المقمرة ولم يكن قد اتضح سر أوجاع روحها وتطول مناجاتها لوحدها وتلعن عجزها ولا أفهم ما الذى كانت تستطيع أن تفهمه لو لم يقطعوا النور عنها قبل أن تصح ويشتد عودها وتعرف كيف تمنع الثعبان أن يضع البيضة فى لحمها .

كنت قد تعذبت طويلا وأنا لا أعرف كيف تتساوى مشاعرها ناحية كل ما كرهت وتعذبت بمشاعرها ناحيتي .. لو أعرف أن تلك كانت ليلة الكشف .. وإن ما حدث سيحدث وإنه فراق أخير بيني وبينها ما تمنيت أن أعرف .. أظلمت الدنيا على عاداتها فى تلك الأيام مبكرا وكانت السماء تنزف مطرا كما لم أشهد طوال عمري حتى تخيلت وحوشا جسدها من الأمطار تهاجمنا .. وتنهشنا .. كيف كل الأشياء تتبدل إلى القبح والقسوة .. كنت أحب المطر وكنا نخرج نلعب تحته وأطلق شعري ليرويه ويطيله .. ولما كبرت قليلا أحببته رسالة رحمة والسماء ترضع الأرض .. وتلك الليلة كانت الأمطار من قلبى المنقل بالوحشة والغربة ولم أعد أعرف من الذى يبكى أكثر أنا أم السماء ورغم كل ما كان يحدث خارجي وحولي فداخلى انقشعت الغيوم وتجلت الحقيقة .. فبكائى لم يكن مما فعلته بى ستي عيوش ولكن من كشف صورتي التى كنت أخفيها .. وكيف رأتها بعيونها التى لم تعد ترى .. كيف عرفت أن

الزمان يبتعد عني وأطرافي وقدراتي بلا أصابع تطول ما تريده أو تتمناه .. جزام أصابني .. أوراقي في المدينة يعتذرون عن قبولها لعدم الأهلية ولنقص التأهيل .. كنت أخفي صورتي الداخلية أو الحقيقة وراء مظهر قوة أتماسك وراءه وادعى القدرة كيف أمسكت جدتي بالحقيقة .. ومن داخل مخابئهم أخرجتهم كلهم .. قلة حيلتي وضعفى وهوانى على الأيام التى ستأتى .

فى انتظار نهار أعرف فيه إلى أين أذهب تذكرت لعبة طفولتى وأغلقت أنفاسى فقد أستريح راحة أخيرة .. وسمعت دقات عصاها فى باحة السطح تتساند إليها وتكاد تقع بها وصوت مهماتها يختلط بصوت الأمطار والرياح .. كنت أعرف أنها فى السنوات الأخيرة تبدلت طباعها وسكت حديثها للنوارس ولنخلتها المقطوعة وللبحر الذى كان ولابن طيب لم تنجبه ولم يبق إلا أسئلة متقطعة عما يأتى من المدينة من أخبار عن « موافى » وكنت أسمع أنه كبر واشتد عوده وكنت فيما أراه من أخبار منشورة لناس مشهورة لا أعرف أن كان هو ابن جدتى .. بالتحديد لا أستطيع أن أجزم . ولكنها ملامح موافى المحفورة فى ذاكرة الطفولة كبر واشتد عوده ويضع للزمن ألوانه ويغير أسماءه .. كبر الاستديو وانتشرت فروعه فى أنحاء الدنيا وسجل باسمه اختراعا تاريخيا يستخدم الظلام فى التصوير بدلا من الضوء .

كان سكوتها وصمتها الطويل لا يشقه من زمن إلا غضبها عليّ وفزعها لرؤيتى وإن كان لم يحدث إن كانت قسوتها وذبحها لى وكلماتها الحادة مثل تلك الليلة .. قاومت أن أغادر فراشى لأبعدها عن النافذة التى دخلت وفتحتها على أقصى اتساع لها وجلست تحتها .. أحسست بالشلل يزحف على عظامى التى جمدها البرد ..

وجدتها تتحرك ناحيتي .. جلست على طرف فراشي وقبلت رأسي.. ارتجفت لملمس فمها المثلج وملابسها المغسولة بالمطر أحكمت بيديها الغطاء حولي ولأول مرة سمعت لها صوت بكاء .. تمنيت لو افتح ذراعي وأخذها بينهما فطوال عمري كنت أتمنى أن احتضن وأربت جسدها المضيء النحيل وكنت أحبها وأخشى قوتها وأعرف أن تحتها ضعفا ورحمة لم تجد بوابات لها فكل من أحببت كسر قلبها وكل ما تمننت أخذ منها ولم يبق لها إلا بصيرة وشدة في الحق تعذبت بهما رغم أنها لم تجاوز فيهم الحقيقة مرة واحدة حتى وهي تذبحني .. وقبل أن أعرف ماذا أفعل كانت قد عادت لنافذتها المفتوحة وجلست عندها بينما ازدادت جيوش إبر البرد عنفا ووحوش الرياح تضرب الحجرة من جميع الجهات و كأنها كماشة طبيب الأسنان وهو يشد ضرسا من ضروسي التي أكل التسويس جذورها .. ثم وجدتها تندفع إلى طرفي كنبتها وكأنها كره تتدحرج فوقها .. واكتشفت أننى مثلها أتدحرج فى فراشى وخلع الرعب قلبى قبل أن أتبين أن البيت يرتج تحت ضربات زلزال .. وجدتنى فى الأرض .. وتنبت عليها تفزع إلى وتتشبث بى كأنه قد نما لها ذراعان من حديد .. وأخذتنى فى صدرها كان ضوءا يشع منه .. كأن الشمس التى تغيب من شهور وراء الشجيرة عند الميناء قد سكنت فى صدرها .. والبيت يترنح كأنه عش طائر على طرف جريدة نخل وسط عاصفة مجنونة .. وسكنت وأطمأنت فى حضنها الدافئ كما لم أسكن وأطمئن طوال عمري الذى ذهب والذى جاء بعد وظلت تمسح رأسي وصدرى وبينما لزم فمها الصمت سمعت من صدرها أصدااء ترتيل قرآن : بعد أن استوت الأرض واستقرت البناية وأنا أحاول أن أرقدها فى فراشها .. قالت لى :

- إجمعى الفرش لم يعد لى نومة فوقه .. جرس المعديدة يدق
لأذهب البر الثانى . إشرى النور واشتدى على الزمن لتعجز الحية
أن تجد مكانا للبيض .. قتل العبد الصالح الولد حتى لا يكبر معه
شره ويأكل أباه وأمه .. لكن لا كان عندى بصيرته ولا ذراعه ..
لا تقفى وحدك .. واشربى لترى وتطولى واسقى ... لا تنتظرى
الفجر .. الشمس محبوسة وراء القمر .. والكسوف سيطول .
كنت أحلم . أو كنت بكامل الوعى .. أو كنت بينهما .. أو كنت
أهزب مما كنت أعرف .. أنه عندما لا يطلع نهار فلن تستيقظ ستى
عيوش .

- ولم تستيقظ ..

- .. فى المدافن النائمة فى بحر الخضرة لا يفصلها عن بحر
الماء إلا طريق ضيق وأنا المس رأس النخلة الصغيرة الواقفة عند
قبرها والتي طلبت منى ألا أكف عن ريها لأنها لن تكف عن
إطعامها من داخل قبرها قلت لها :

- الرسائل بدأت تصل أوضح وأعمق .. ساعيد قراءة كل
ما كان .. والقادم بفهم وافتح العين والعقل والقلب .

- لا أعرف متى سمعت نشوى برحيل ستنا مع أنى نفذت
وصيتها بعدم نشر نعى أو إبلاغ غير أقاربنا الباقين فى مدينتنا
الصغيرة .. كنت أعرف وأسمع أنه قد ذاع صيت وعلا نجم
نشوى .. ووصلنى فيما يتهامسون به أن التدرى فى بيوت
التصوير صقلها وأمن مستقبلها .. وأنها كما حدثتنى فى يوم من
الايام تجنى ثمن الاخلاص وأنها تعمل الآن مع موافى فى واحدة
من مؤسساته الكبيرة .. وأظن أننى تأكدت أنه لابد أن يكون هو -
فملاحه المحفورة فى ذاكرة الطفولة هى - ولكنه لم يعد يضع
للزمن ألوانه ويغير أسماءه فقد كبر واستقر ويصنع كل شئ

على مقاسه - فالاستديو كبر معه وانتشرت فروعه بعد أن طور
اختراعه النادر الذى استخدم الظلام فى التصوير بدلا من الضوء .
- فى موسم زيارة لجدتى التقيت بنشوى تلمع فى سيارة
فاخرة وأدهشتنى التجديدات التى حدثت للمقبرة المتواضعة
والرخام والسيراميك والبوابة الحديدية السوداء المذهبة والمكحلة
بثبت عائلى لأسماء لم أسمع عنها فى عائلتنا يتقدمهم اسم ابنها
وأزالت نشوى دهشتى بأنه يقوم بواجب أمه عليه وكما أكرمها
فى حياتها يكرمها فى موتها .
- لا بد أن الضحكات كانت لجدتى تلك التى سمعتها وأنا أعود
إلى المدينة على أقدامى عبر الطريق الساحلى الطويل - لا أعرف
هل كانت تضحك على ما سمعته معى تقوله نشوى عن إكرام
ابنها لحياتها وموتها .. أو تضحك ضحكة من ضحكاتنا القديمة
التي كنت أحن لها عندما تغيب .. وعندما تطلقها أعرف أن مواسم
جنى الشمس تقترب .. يتدفق الدم فى عروقى وتدفق حماس كثر
وقوعه وضياعه منى .. أسرعت الخطا وركبت الريح لالحق وأعد
واجبات تلميذاتى ليوم دراسى قادم وأصل ما بينى وبينهن من
سقى بالحب والعلم .. وأصنع ما همست به « ستى عيوش »
والدنيا ترتج فى كل ما أحاوله لأصمد وأوصل واشتد ..
ولا أكف عن شرب النور من منابعه القليلة الباقية لأشعة مع كل
الذين يشربون .

امـرأة

يونيو

حالة اتصال

- كعادتها عندما يضيق الكون توسعه .. وتصغى
لأصواته وتسترجع أصداء أزمان وأحداث وناس
وتستعيد لحظات انهزم فيها الشر فتأمن روحها
وتستكن وتسكن للحظة انهكها صعود الجبل تلتفت
تتوسل وسيلة مواصلات .. الجبل وسكانه

والقادمون إليه لم يستيقظوا بعد الطريق خال إلا من وقع خطاها .
للمرة الثالثة أو الرابعة أخرجت الخطوط التي رسموها لها
حتى لا يضيع منها الطريق أحست أنه ضاع .. ولكن الفكرة التي
استولت عليها لم تترك مساحة لخوف أو تراجع .. وفرط إيمانها
بما جاءت له أمنت أنه سيقودها للمكان .. طمأنتها الخاطرة فحثت
الخطى ..

تقافزت الحمامتان النائمتان على صدرها تحتضنان بيضا لم
يفقس منذ ألف وأربعمائة عام ووراءهما شبكة خيوط العنكبوت
تفصل بين الثائرين المختبئين داخل الكهف وجند الشر الواقف
بالباب ..

تقدمت الأقدام السوداء من فتحة الكهف وسدتها وراحت
أطراف السيوف تمزق كل شئ حتى الهواء .
تراجع السيف المرتجف .. خاف لو قطع خيوط العنكبوت

ينقطع خيط عمره كما حذرت العرافات ..
قال الشاعر الأكبر لصديقه .
- لا تحزن إن الله معنا .

انسكب على الكون ستار أمن وانحسر الشر وتنفسست
الحمامتان الهواء الذى قطعه الجدار الأسود .. وتنفسست هى الأمن
الذى قطعته مئآت الجدران السوداء ..

- مدت يدها تطمئن أن الحمامتين مازالتا فى مكانهما المدقوق
على العملة المعدنية التى وجدتها تائهة فى بحثها الدائم وراء
الأشياء القديمة تأكلت أطراف العملة وأطراف الكلمات التى تشير
إلى أن العملة دقت فى ذكرى الهجرة وبقيت الحمامتان وسطها
تشعان المعنى فى صدرها تشبثت بهما ووضعتهما فى إطار
وتعلقت بهما وهما تتدليان من سلسلة هى الأخرى من مخلفات
بحثها فى الأشياء القديمة .. أرجعت لخيالاتها ولأوجاع روحها
إحساسها من زمن قريب أن الحمامتين تهمان بالطيران ..
والبيض انطمس .

انتفضت وتشبثت بقلابيتها وأسرعت أكثر فى صعود الجبل
رغم انفاسها المقطوعة .. وتنبهت مرة أخرى أنها تتعلق
بالحمامتين كلما اشتد الكرب وزاد البلاء ..

انتهى العمار وبدا الأمر كما وصفوا لها خلاء واسعاً كأنه
طرف الدنيا البعيد والمبنى أيضاً كما وصفوه لها ضخم عتيق
وبوابته شامخة قديمة كأنها بوابة الزمن أو التاريخ ..

تقدمت واستجمعت آخر ما بقى لها من جهد بعد مشوار
الصعود الطويل وشبثت على أطراف أصابعها لتطول الكف

النحاسى الضخم .. ودقت الباب ..
من الخوخة التى تتوسط الباب أطل وجه عجوز له عمر البيت
والجبل يحلق فى وجهها .. لابد أنه قرأ شقاء العمر المديد عليها
— فما أن فتح فمه ليحتج على موعد قدومها المبكر كأنها لم تنم
طوال الليل لتبدأ مع أول شق للفجر .. وكانت قد هيات نفسها
بتقبل المتوقع وغير المتوقع من الغضب رغم أنها لم تقصح عن
نوعية الطلب الذى قالت إنها جاءت من أجله تطلب مقابلة المدير .
انتظرت أن يكمل العجوز غضبه ..

أغلق الخوخة وفتح الباب .. وانزاح لها لتعبر .
تلفتت تبحث عن شئ تستعيد به اطمئنانها من البلاد البعيدة
التي يفر إليها عندما تجد نفسها غريبة .
وجدتهما ..

غائرتان .. بعيدتان .. تغوصان فى عمق الحفرتين اللتين
صنعتهما جدائل السنين حولهما .. الحدقتان ربما كانتا سوداوين
فى يوم من الأيام .. ولكن الزمن أذهب اللون وأبقى الفعل
والمعنى.. لهما طيبة نائمة فى العمق البعيد .

يبدو أنه لم يأت المكان أحد غيره وغيرها .. أشار إلى ركن
بعيد لتجلس وتنتظر حتى لا تغوص فى الماء الذى ملا الأرض ..
وامتأل وجهه برغاوى الصابون .. أدارت وجهها بعيدا لحراما
لعريه .. كان يشمر عن كله ويقلب المكان ويغرقه فى بحر ماء
وينظف الجدران الحجرية البيضاء يلمسات سريعة .. من فرط
الرفق وعلاقة العشق بين الأصابع والجدران سمعتها تتأوه ..
وبالراحة والنظافة تضوى وتتمدد.. بطرف إصبعها وبحركة خفية

مست الجدار تتأكد أنه من صخر وليس من لحم ودم .
أقترب منها العجوز يزيحها إلى مكان جديد ليواصل التنظيف..
امتثلت وانتقلت وعادت عيونها تمسح المكان وترقب صعوده
وهبوطه الأعمدة لينظف المشربيات والفتحات القريبة من الأسقف
والمغلقة بزجاج معشق بكل الألوان .. وينفض التراب عن الأقر
الزجاجية الزرقاء التي تتوسط الأسقف الصخرية فتضئ المكان
بنور شمس مغموس في لون البحر .

تنفست بعمق وتمنت لو ابتلت بمائه .. وعرفت بمقياس جديد
معنى ما كتبه الحكيم في تذكرة طبية قديمة أن ماء المحيا الذي
يطيل العمر ويجدد الخلايا ليس ماء أسطوريا .. ولكنه موجود
يوجد إذا تدفق الأمن والراحة وانفتحت الأفهام والأرواح ..
ساعتها يحدث العطش الحقيقي فتتفتح المسام وتبتل العروق
فترتوي الروح وتحيا وتتجدد الحياة .

تمنت لو أن الباب لم ينفتح مرة ثانية لتخرج منه وانفصل هذا
البيت العجيب عن المكان الذي جاءت منه .. وتصبح فلذا بها لم
تكن وكل من اتعبتهم وتعبت منهم يرتاحون وترتاح .

انتهى العجوز من تنظيف الأسقف وعاد للأرض وقال لها إنها
تستطيع أن تنتظر في أى مكان فقد انتهى التنظيف ولم يعد باقيا
إلا القليل على موعد وصول الموظفين والمدير لتقدم له الطلب
الذي جاءت من أجله كما قالت في أول دخولها المكان .

وهو يبتعد عنها سمعته يقول لها :

- كان مشوارك طويلا .. أجلسي وأخلى عليك .

فزعت ..! كيف عرف ؟.. وهل مشيت أمامه بطريقة تكشف

تورم قدميها وتسليخ ساقيهما .
اقترب منها يزيح مقاعد بعيدا عن الماء وقال ..
- من الأفضل انك بكرت .. الشمس ستكون حريقا .
أشارت إلى بقع حمراء تملأ ذراعيها وقالت :
- الحريق بدأ قبل أن تطلع الشمس .
أشار للجدران وقال لها وهو يبتعد :
... إنها حية تتنفس لأنها مقطوعة من صخر الجبل .. تحجب
الشرد خارجها وتبرد الهواء داخلها .
تنبهت انها منذ دخلت وهي تبحث عن سر ترطيب المكان
والهواء البارد الذي يملؤه رغم عدم وجود مراوح ولا أجهزة
تكييف .. ورغم الشرد الذي يخنق الهواء خارج البيت والدخان
الذي يغلف الأرض والمخلوقات ينثر عليها رذاذ رماد كأنها
مخلفات احتراق حدث أو على وشك أن يحدث .
ارتاحت للمكان .. وأطمأنت للشيخ .. وأطلت عليه من بعيد
فوجدته قد عاود انشغاله بالتنظيف والترتيب ..
خلعت حذاءها .. وارتحت ساقيهما وأبعدتهما تسكت لهيب
تسلخاتهما ..
فزعت وأغلقتهما .. كارثة لو عرف عنها الأكثر ..!
عادت تنشغل بالمكان .. وجدت له عمر الجبل وقدم الزمن ..
ولأثاثه الجوزى الداكن رائحة عطر السنين والتاريخ والبخور
وحوافه وأركانها تملؤها الأشعار والآيات القرآنية مكتوبة
بالأصداق ..
لم تتوقع أن يكون للمكان كل هذا السحر وهي تقرأ في

■ حالة اتصال ■

الجريدة أن بعثة الجيولوجيا والطبيعة والجغرافيا اختارت بيتا فى الطرف البعيد للمقطم عند نقطة فى الجبل تسمح لهم بوضع أجهزتهم لرصد وتحليل حزام التلوث الذى يلف المدينة ولمراقبة اتساع الثقب الذى اصاب رأس الكون .

مدت يدها تحت شعرها تبحث عن المكان الذى سيظهر فيه الثقب وقالت للعجوز وهو يقترب منها ليناولها كوب ماء دون أن تقول له إن لسانها تشقى وتشعلق فى سقف حلقها .

- ستحتار السلالات القادمة فى تفسير أسباب الثقب الموجود فى جماجمنا .

وضع الكوب جانبا وعاد يتحاور مع الأشياء حواره مع كائنات حية اكتسبت بالعشرة حياة . وأكملت هى بهمس أعلى :
- هل يصدقون أننا عشنا عجائب وأوجاعا ففتحت أمخاخنا فى قشرتها ثقوبا تنفث منها الدخان والناز بدلا من أن تنفجر بهم .
قال لها :

- تقولين شيئا .. ؟

باغتتها مفاجأة سماع صوتها فقد خفضته حتى لا يسمعه غيرها فمنذ تعودت الصمت بسبب ما يأتى به الكلام أصبحت لا تقول أغلب كلامها إلا لنفسها .

تذكرت الماء واحتياجها إليه .. وهى تشربه لاحظت أن الصبار يفتح مسامه ويطلب رشفة . أخذت الكوب وقامت إلى أحواض الزرع التى تملأ النوافذ الوطئة تحيطها الكرائيش الخشبية مغزولة بالأرابيسك العربى .. وزعت عليه نقاط الماء وعادت تتقافز حافية وقالت للعجوز بفرحة طفل ارتوى :

- سمعت صوته وهو يمص الماء .. كان ميتا من العطش .
ضحك لها العجوز ولحقها بإناء ماء ممتلئ وأشار لباقي الزرع
لتواصل الري وأشار إلى رأسه وقال :
- دخلت المائة الثانية على الحسابات التي تحفظها رأسى ..
فأنا لا أعرف ما يسمونه تاريخ ميلاد .. أحسبها بحساب ما حدث
فيها.. تاريخ الجهادية .. حرب عرابي .. حرب الانجليز .. يوم
قامت القيامة وخرجت البر كله خلف الباشا سعد .. عرفت أنها
بدأت تشيخ لما بدأت تقع منها حمولة الوجوه والحكايات وتنسى
ولا تتذكر إلا الناس والأيام التي أحببتهم . موعد سقى الزرع فات
من أيام .. الحمد لله أنك سمعته .. يجلسون بجواره كل يوم
وآذانهم وعيونهم مفتوحة .. ولا سمع ولا رؤية .
أنتهت من السقى .. وتنبه أخيرا كلب حراسة ضخم كان مازال
نائما أن قدما غريبة اقتحمت المكان .. دقها الخوف مكانها وهي
ترى الشر المستطير في عينيه وهو يندفع ناحيتها .
نادى عليه العجوز يؤنبه ويلعنه أنه أصبح مثلهم بليدا سد
الطين منافذه .
والتفت إليها وحذرهما أن يعرف الكلب أنها خائفة .. هدا نباحه
وبدت عليه علامات استكانة .. وظننتها تحفزا على طريقة أولاد
البشر .
طمأنها أنه حيوان له أصل ولا يهاجم إلا عدوا ومازال يفهم
ولا يخطئ قراءة نوع الغريب القادم .
لم تنتبه لغرابة مشهدها وهي تربع أقدامها تحتها فوق المكتب
الذي قفزت إليه إلا وعشرات الوجوه تحديق بها وتحيطها بعشرات
التساؤلات .

نزلت رغم خوفها .. وتولى العجوز عنها تقديمها إليهم وأشار إليها وتذكر أنه لم يسألها عن اسمها وهم بالسؤال عنه ثم أراحها وقال :

- بنت الناس الطيبين .

سألته في نفسها كيف عرف إذا كانت هي نفسها تشك إذا كان ما يورث كل هذه الغربة والشقاء اسمه طيبة أو له مسميات أخرى .

فهمت أن العجوز افهمهم أن الغريبة جاءت في طلب شخصي من السيد المدير .

بأطراف أصابعها وبطرفه من عينها سألته الباحثة صاحبة المكتب الأقرب عن طبيعة هذا الطلب الشخصي .

وهو يضع الصينية النحاسية المستديرة تمتلئ بأكواب الشاي تطل منها أعواد النعناع الأخضر أكد لها أنه لا يعرف .

فتحوا الغافة تمتلئ بأرغفة فول وطعمية وتخاطفوا وتضاحكوا وقدمت لها صاحبة المكتب الأقرب رغيفا وكوب شاي .. عرفت وهي تتناولها إنهما عربون محاولة مخبوءة لاشباع فضولها ومعرفة سر الطلب الذي جاءت من أجله ..

حدثتها عن كبحها لتصعد الجبل ولهفتها لتلحق اليوم من أوله والبحث عن المكان والخوف من التوهان حتى وصلت عند الباب ..

نسيت ما بدأت من عنده وما كانت تريد أن تصل إليه وهي تعيش في تواصلهم ود وصدق وبساطة .. تفتحت مسامها وجاعت وعطشت وأحبت اقتسام اللقمة معهم .. وضحكت في

نفسها لحوارهم تعطيه طبيعة المهنة قاموسه الخاص .
وهم ينقضون أيديهم من مخلفات إفطارهم ويستعدون
للمصعود للدور الأعلى حيث فهمت أن أجهزة الرصد والبحث
والقياس هناك ..

قالت باحثة لها وجه طيب ويبرق في عينيها قلق
كثرت التشوهات والتشققات ولم تعد الأجهزة كافية لرصد
المناطق المهددة بالكسور في القشرة الأرضية .
من بعيد جاوبها شاب وهو يضع ذراعيه في اكمام بالطو
أبيض .

.. ليست أجهزة رصد الزلازل فقط .. لحقت بها أجهزة قياس
التلوث .. السواد يحزم المدينة ويتخطى قدرة الأجهزة .
من فوق الجبل وهي قادمة شاهدت المدينة وقد فقدت
ملامحها داخل طبقات الدخان الأسود .. ظنته رماد فجر احترق
من درجات الحرارة العالية .. طلع النهار وظلت المدينة من بعيد
بلا ملامح .

اعتصر قلبها غم وزحف حزن قديم .
نبهتها حركة صعود الباحثين إلى الدور العلوى همت بالتوجه
والصعود .. من وراء ظهرها أمتد الكف العجوز وأسكنها مكانها
وقال لها :

.. منطقة الأجهزة محرمة على غيرهم .
حاولت أن تقول له أنها ليست غريبة عنهم .
ضاع صوتها في محاولتها لتفادي نحلة دخلت نافذة وأخذت
القاعة الواسعة في دورات متوالية واتجهت ناحية نافذة مواجهة .

أفسح العجوز طريقها وقال :
- لا تخافيهها فهي لا تؤذى إلا من يعترض طريقها أو يسده
بعطر صناعي .. رائحة الطبيعة تقودها إلى خليتها .
أخذت جانباً وسألته إن كان مؤكداً حضور المدير اليوم .

قال لها :

- لا شيء مؤكد ..

خجلت من نفسها .. بعد كل مشوار أوجاعها وما زالت تسأل
عن المؤكد واليقين مع أنه لا شيء واحد في حياتها تأكد .
- آه ..

قالتها طويلة وعميقة ومحروقة .

سألها :

- كنت تقولين شيئاً .

هزت رأسها بالنفي وأطرقت واستسلمت للانتظار .

مدت يداً مرتعشة .. وتراجعت .. ثم تقدمت وتكرر تردها ..
الكلب المستسلم للنعاس قرب أقدامها ارتفع برأسه لتطوله يدها ..
وجرت يدها تربت بخوف على رأسه .. واصلت الربت عليه ..
وواصل استسلامه وعرفت أنه أطمأن وعرف أنها مثله تحتاج إلى
صحبة .. وعيونه نصف النائمة تواصل الحوار معها .

سمعت أصوات حوار تأتي أصدائها من خارج البيت .. قفزت
من مكانها .. لابد أن المدير وصل والعجوز في الخارج يتحدث
إليه ..

اندفعت للخارج تلحق بالمدير قبل أن يصعد إلى مكتبه
وينشغل بأعماله عنها .

وجدت العجوز انتهت من سقى اصص الزرع والأشجار الصغيرة التي تملأ مدخل البيت والمكان خال إلا منه وحواره كان مع زرعه والمكان أشبه بمشغل صغير وزرعه وأشجاره مازالت اطفالا .. يسقيهم ويربت رءوسهم وينزع حشائش بخيلة ونثر حبوبيا لعصافير تاكل وتتقاذف ولا تفزع لخطوات أقدامه العارية تغوص فى الطين وهو يواصل السقى ويحذرهم من الاقتراب فالشجر مازال صغيرا ولا شئ فيه يؤكل .

سكب مزيدا من الحبوب والتزمت العصافير بالأمر واستدار للشجر وسأل إن كان أحد منهم مازال عطشان :

على باب المشغل وقفت تتفرج عليه قبل أن تسأله عن المدير قال لها : إطمئنى لابد أن يأتى مهما تأخر .

تمنت لو سألتها عن الطلب الذى جاءت له لتطمئن على امكانية تحقيقه .

تمنت لو كانت صبارة فى فخارة حمراء وطين مسقى تسمع من يسأل عنها وتستجيب للحب والاهتمام فتكبر وتطول وتطرح وتملأ الأرض ظلا ويتدفق عصيرها نهرا ويأتى كل من له رأس بلا شعر يسقيها من ماء نهريها فينبت شعره .

سألت العجوز أن كان وهو يملأ المشغل بالصبار يعرف أنه أعظم دواء للصلع .

ضحك وهو يخلع غطاء رأسه ويربها شعره الكثيف الأبيض سألتها إن كان يؤمن أن البشر أنواع مثل الزرع .. وإن هناك بشرا صبارا ينبت فى الصحراء لا ماء ولا ظل ويختزن أمطار السنين البعيدة ويتغذى على الجفاف ويستمر رغم ظروفه الصحراوية

ويطرح وردا وعطرا وزيتا وشعرا وظلا .
أسرع العجوز إلى رابية نار صغيرة فوقها براد نشأ قديم
تحت الشجرة الكبيرة الوحيدة .. وجلس فوق فراش من
الحشائش الخضراء وقدم لها مقعدا واطئا رسومه الدقيقة تقول
أنه كان فى زمانه تحفة ..

غاصت فى المقعد الخشبى واستندت لجزء الشجرة الضخم
الذى يبدو وكأنه جذعان اشتبكا واتفقا واصبحا واحدا .. لفتتها
غزارة خضرة الشجرة رغم حرارة الصيف وجبلية الأرض .
وهو يناولها كوب الشاي أشار إلى الشجرة وقال :

- طوال العام لا تعرف خريفا ولا شتاء .. جدى العرابى الكبير
كانت بيده مفاتيح البيت أيام جاء واستولى عليه ساكنه الأول
الارناؤوطى .. قتله جدى لما طغى واستكبر وظن أنه يمكن أن
يطرده لأنه سكن البيت ..

- أخرج جدى أن يسبق ويطرده لأن صاحب البيت والأرض
بالتعب والعرق أحق من سارق البيت مجهول النسب والأصل .
- ارتجفت لسيرة القتل ولم تفهم علاقته بالشجرة التى
لا تسقط أوراقها ولا تتوقف خضرتها طوال العام .

وهو يحكم لفافة تبغ من علبة من الصفيح الصدى قال :
- لما شربت الشجرة من دم القتل الظالم ومن غضب القاتل
المظلوم أصبحت تصاب بحالة غضب وتحمر أوراقها كلما لحست
بظلم أو خطر قادم قبل حرب عرابى شاهدها بعينى كنا عيالا
نلعب تحتها وفجأة انقلبت الدنيا حمراء رفعنا رءوسنا صرخنا
كلنا.. انقلب ورق الشجرة أحمر .. وأحمرت الشمس وطار ربح

أخذ الورق كله وفرش الأرض بالدم .. وبعدها سمعنا من الكبار أنهم خانوه وهزموه ونفوه .. وتكرر الشئ نفسه قبل نفى سعد وقبل زلزال ٤٨ وقبل زلزال ٦٧ وقبل موت عبدالناصر .. الدم مازال يجرى فى عروق الشجرة ويندفع فى أوراقها لما تكون الدنيا حبلى بخطر .

ارتجف جسدها وابتعد عن التلامس مع الشجرة وأحست بالملمس اللازج لبقع الدم وتساءلت إن كانت حمرة الشجرة تكون فى لون الدم .
قال لها :

- ليس شرطاً أن يكون فى لونه .. ولكن لونها الأصلى يتغير .. وخضرتها تملأها حمرة .. الشئ لا يتغير عن أصله إلا ليقول أشياء .

هزت رأسها توافقه وانسابت منها الكلمات .
- كانت البنت مازالت نقطة تسبح وتسبح فى المدى باحثة عمن يسقطها فى أرض فتروى ثمره فتنبت شجرة من يومها يوم ربما من بائة الف عام وهى تكبر وتتחסس .
عرفت أن أوان النزول اقترب .. ادهفت السمع لحس العالم الذى يخرجونها إليه سمعتهم يقتسمون الدنيا فكل شئ عندهم أرقام تلصصت وتسمعت وتوسلت لحظة رحمة الصمت الكامل إلا عن القتال والتقسيم والغضب والنار المشتعلة .. خافت والتصقت بجدار اللحم وتعلقت بحبال القلب وقررت ألا تخرج . حدث الزلزال الأول .

ارتجفت وتخبطت فى جدران صندوقها ثم تدفق حولها بحر

دم وعرفت أن سكيننا طارت فى الهواء ونصلها الحاد مزق جدار الصندوق فتحوه ليخرجوا الجنين الميت وجدوه مولودا حيا من يومها وهى ميت حى .

قالوا : إن كل من يعرف الحس وله اتصال وعين تبصر واذن تسمع .. وله خجل ووجل وحسية .. من يحمل هذه الصفات فى زمن خائب يبقى ميتا حيا .

قرأتها البنت فى الكتب القديمة التى قالوا لها فيما بعد أن بها الكثير من كشف الأسرار .

قال لها العجوز :

- اتركى ما بعد إلى ما حدث قبل وأكملى حكاية البنت .

قالت :

- استأجرا الطريق بين بيتهما وقسم الشرطة لا يكفان عن العراك لاقتسام كل شئ وقررا قسمتها اثنين .. النصف له والنصف لها وكأنها طفل حدوته سيدنا سليمان .

تحسست جسدها وأكملت :

- حتى الآن مازالت البنت تقوم فى الليل تبحث عن أجزائها فقد يكونون مزقوها ليأخذ كل واحد نصيبه فيها .. وحتى الآن مازالت تبحث عن يستطيع جمع الأطراف ووصلها .. ما علينا .. عرى التمزيق أغطية سلوك الأعصاب والإحساس والحواس وأيقظهم الوجع ودفهم ورقهم الحزن فازدادت حالة الاتصال بالألم والغربة .. وفى عيونها وأصابعها وعقلها وقلبها تفتحت آذان وعيون وسكن إحساس بالدنيا .. وكان المشوار طويلا أدرك أن كل يوم ستكبره وكل فهم تحصله سيزداد به المرض .

ريت العجوز وجه الأرض وتحسس بلل الطين وتأملها بعمق
وسألها :

- ومن قال أنه مرض .. ؟

قالت :

- كان فى أوله مرض ثم انقلب إلى كارثة ..؟

- كيف ؟

- فى البداية ظنوا أن أمرها لا يزيد عن حالة حساسية زائدة -
ولم تفهم أمها سر العلاقة بين الطفح الجلدى الذى يحول جسد
البنث إلى كرة متوهجة حمراء وبين مواسم اللقاح .. دهنتها جدة
كبيرة بزيت قنديل أم هاشم بعد أن قرأت عليه سبع تعاويذ
وعجنته بهباب سبع عرائس حرقنت عيونها وثقبت أجسادها ثم
حرقنت أوراقها ثم غسلوها بماء البحر المالح فى فجر يوم فردى
من شهر قمرى لسنة غير كبيسة .. قالوا لامها جربى تجربة
أخيرة .. فإما يغسلها المالح وتشفى وإما تأخذها موجة وترتاح .
وفى الفجر عارية إلا من ثوب الهباب الأسود رموها للبحر ..
حضنت الموجة ورضعت صدرها وخرجت عليها .. لم تشف ..
ولم تمت ..

واستقر الأمر انها حالة حساسية تحدث عندما يأتى الربيع
ويمتلئ الهواء بحبوب الحياة .. ولما حدثت فى الخريف قالوا
إنها حساسية للتراب . ولما حدثت مع الطعام والشراب قالوا أنها
حساسية للمعلبات والمحفوظات وكل ما هو غير طبيعى فى
الشكل واللون والمذاق وانها يجب أن تعيش على منتج الطبيعة ..
ولما عاشت على القليل الباقى من الطبيعى وتكررت الحالة قالوا

أن حالة الحساسية انتقلت لنسجاد وما نخله من كينماويات ..
وأضاف كل طبيب جديدا لقائمة الممنوعات .. ولم تغد البنت
خريجة معهد فنى قدر ما أصبحت خريجة أقسام الحساسية
بالمستشفيات وحالة مطلوبة ولأعلى سعر لطلبة كليات الطب ..
ورفضت أن يكون مرضها مدفوع الأجر وقدمته مجانا للدرس
والبحث لمن لا يقدر على الدفع فالوجع والوحدة شدا روابطها
إلى أصحابهما .. ووسع حالة الحساسية ووصلها بالبشر ..
والعجوز يعيد إشعال النار وملء دورثان للشاي أمعن فيها
النظر .. ولم تنتظر سؤاله لترد عليه :

- صحيح يا غنى أصبحت البنت خبيثتها ثقيلة .. ومثل البحث
عن العنقاء والخل الوفى أصبح البحث عن أرض ومواسم بلا
تلوث وبيع بلا تراب وشتاء يغسله المطر وماء بلا شوائب ولا
طحالب وهواء بلا جيس وصباح بلا شبورة سوداء وزرع لم
يأكل من سماد مسمم وفراخ يلدها البيض ولا تخرج من الأنابيب ..
- لاحظ العجوز جفاف حلقها ويحثها عن ماء تبل به ريقها ..
تذكرت أنها منذ جلست فى مشتل البيت ونفسها تراودها على
شربة من طرف خرطوم مائة مثل ما كانت تفعل وهى عيلة تعشق
التمرغ فى رائحة النجيل الأخضر وشرب الماء مثله من حنفية
وخرطوم الزرع .. ولا تحسن بالشبع إلا بعد أن تطمئن أنها غرقت
مثله بالماء .

وهى عائدة من عند طرف الخرطوم تدعى أنه أغرقها رغما
عنها وأنها بعد قليل ستصبح مثل الشجرة وينبت فى جسمها كله
فروع وأوراق خضراء ..

لم يضحك العجوز وأغلق عينييه. يصد عنهما ريح هم ثقيل ويحجب عنها رؤية ما امتلأ به .
قالت له :

- انتظر .. فالسبب الحقيقي للحزن لم أحك لك عنه حتى الآن..
فحتى ما وقفنا عنده كان بالامكان تدبير اللقمة والتحايل عليها
والتحايل على الجلد وما يحدث له .. واحتماله مرة وتمزيقه مرات
بالحك وإسكاته بابتلاع أقراص .. ولكن شيئاً آخر بدأ يحدث ..
وحالة الاتصال لم تعد فقط بين الجلد والمصران والمعدة
والأمعاء والماء والهواء والتراب .. انتقل الاتصال إلى الداخل ..
إلى النفس والروح .. حالة الحساسية أو الإحساس انتقلت لهما
الله وحده أعلم هل الألم يجلى الروح ويكشف عنها غطاءها فترى
وتسمع وتحس وتتوجع .. المهم أن البنت كلما عرفت أكثر ازداد
الوجع وكلما فهمت أحست واقتربت وانكشف لها الغطاء عن
الناس والأشياء ..

سأقول لى كيف .. ؟ ولماذا .. ؟ و .. ؟

وسأقول لك لم يكن عندها إجابات .. ولا هى كانت تفهم معنى
أن حالة الحساسية والحكة انتقلت لروحها .. وكما قال لها الأطباء
راقبى جسمك لتعرفى ماذا يأتى بالحكة لتعرف كيف نعالجها أو
على الأقل نخففها .

راقبت روحها واكتشفت أنها تحمر وتضيق وتنتفخ ويصيبها
كل أعراض الحالة التى قرأت أن الأرض تعانىها عندما يكون
الزلازل قادمة أو البركان كامنا .. سخونة وغضب وهدير وغليان
وتشقق وحمم تفور وتغلى على سطح البركان .. وأنه يحدث لها

كلما حدث خلل أو نقص أو كذب أو تلون أو انقطاع عن الطبيعة والرحمة والفهم .

- وكانت تستطيع أن تطول جلدها ساعة الحكمة وتستطيع أن تمزقه وتسكته ولكن ماذا تفعل بحكمة الروح وكيف تمزقها لتسكتها .

ولما فشلت كل حيل ووسائل التداوى :

ولما تأكدت البنت انها اصبحت مقياسا حيا ومرصدا متحركا..
ولما كان كل ما يحدث حولها يصيبها بحساسية فى عقلها وروحها وجلدها ولما كانت حالة الاتصال بالكون حولها لا تتوقف .. جاءت تطلب عملا .

- قبل أن يفيق العجوز ويجمع خيوط كلماتها كانت سيارة المدير تقف أمام الباب وكانت البنت تقف أمام مكتبه وتدفع له بالملف الذى لم تتركه للحظة يفلت من تحت ذراعها وبحركة سريعة ودون أن يقرأ المدير كلمة واحدة قلب أوراق الملف وأعاد إغلاقه وأعاد إليها وقال :

- نحن لم نطلب موظفين فهذه بعثة علمية من طلاب الدراسات العليا و ..

وهى تعيد الملف إليه وتضغط يديه به ليظل ممسكا قالت له .
- أعرف ولكنى لا أطلب الانضمام للموظفين والأوراق ستوضح كل شئ .

جاء العجوز بالقهوة تشبثت بعينيه فطمأنها ومد يديه وفتح الملف أمام المدير الذى أعاد التقليب وتوقف أكثر من مرة وأمعن الفحص ومحاولة القراءة وهز رأسه وأعاد المحاولة ورفع رأسه

وأمعن النظر فيها وقال :

- يبدو أنك أخطأت وجئت بملف شهادتك الطبية بدلا من ملف الدراسة والخبرة اعتذرت له وأكدت أنها لم تخطئ وأن هذه الشهادات الطبية هي مسوغات التعيين التي جاءت تطلب بها العمل وأن كانت قد حرصت على التأكيد أنها لا تطلبه في كادر الموظفين ولكن بين أجهزة وآلات التنبؤ والرصد .
عدل المدير نظارته الطبية وأغلق من وراء زجاجها عينيه يخفى احساسه بأنه يجلس إلى حالة متقدمة فى الهلوسة أو الجنون أو التخلف العقلى .

- أقسمت له أن ما يفكر فيه غير صحيح وأنها بكامل قواها العقلية وأن كان ما يدور داخل رأسه عنها لا يفاجئها فقد توقعته وتوقعت الأكثر منه .. فإذا كان الذين عاشت معهم عمرها لا يعرفون ولا يفهمون ولا يصدقون فعذره معه لأنه يراها لأول مرة وستعيد عليه الحكاية من أولها .
- تشابكت كل الأشياء .

صباح المدير ليأخذها العجوز بعيدا عنه .. صباحها لتؤكد انها تريد أن تضع أجهزة اتصالها وسط الآلات بعد أن فشلت فى استخدامها لإقامة حالة اتصال صحيحة مع البشر وارتفع الاثنان.. صباحها لتشرح .. وصباح المدير لتخرج ..
والعجوز يجمع أوراقها التى طيرها المدير فى الهواء ويضعها لها فى الملف ويصحبها إلى الخارج .. أقسم لها أنه يصدق البنث ..

سألته إن كان لا يطيب خاطرهما .. عاد يقسم لها انه فهم .. صرخت وأقسمت انها هى التى لا تفهم لماذا تبقى حالة متصلة

فى زمن تقطعت أوصاله وسد الطين منافذه وأبوابه ..
بعد أن اقسم إلا يفتح لها البوابة إلا بعد أن تهدأ جلست تحت
الشجرتين المتصلتين فى جذع واحد .. واستندت إليه واحست
بالراحة وهى تحس أن الجذع أصبح من ثلاثة .. سألته أن كانت
رأسها لم تطرح ورق شجر أحمر .
قال لها :

- حتى الآن لم يحدث .. ولكن ليس بعيدا أن يحدث رفعت
رأسها للشجرة وأشارت إلى ورقة بعيدة فوق فرع قائمه وسط
الفروع والأوراق المتشابكة قالت :

- شعيرات حمراء بدأت تتجمع تحت السطح الأخضر .. الزلزال
قادم لو ظل الحال على حاله .

اتجه العجوز للشجرة وهز رأسه وأسف على الزمن الذى لم
يبقى من البصر إلا خيالات .

فى طريق العودة ووسائل المواصلات قاطعت الوقوف فى
محطات الجبل وسيارات الركوب الضخمة تجرى فارغة والبشر
يملاؤن أسياخ الشواء .

سمعت طقطقات احتراق جلدها وأوقف الجفاف عصا غليظة
فى حلقها .. تقافزت الحمامتان النائمتان على صدرها وفردتا
اجنحتهما فامتلا صدرها بالهواء .. تمننت أن تمزق خيوط
العنكبوت وتطلق كل المخبوء فى الصدور .. تشبثت بقلادتها
واستعادت اللحظة المدقوقة عليها .. تزلزلت تحت وطأة حرارة
الإيمان والقوة والقدرة وسرى فى كيانها كل ما جاء به استعادت
لحظة الأمن وهزيمة الشر .. ضحكت للسحابة التى استعملتها

■ حالة اتصال ■

مظلة فوق رأسها .. وبرد الجبل وبدأ يلقي بظله على الأرض .
أراحت خطواتها .. والتقطت أنفاسها .. قفزت البنت أمامها ..
أزاحتها بعيدا عنها وقالت لها :
- حتى الآلات رفضت انضمامك إليها .. لم يبق إلا البحث عن
وسيلة لإغراقك فى البحر والبحث عن إمكانية الحياة بشروط
البلادة والاستسلام لعنمة الروح والعقل والقلب .
استعادت لحظات انقطاع الاتصال بالوجود وبالبشر عبر
الرحمة والفهم والإحساس .. تذكرت كيف تختنق روحها كأنها
الجمال الذى عليه أن يعبر ثقب الإبرة ليتنفس .
تشبثت بها لتبقى .. ومهما كان الثمن المدفوع لوجودها .
- غدت المشى .. وتحولت خطواتها لقفزات .. حالة اتصال
حدثت لها مع الكون وسمعت اصدااء بكاء وضحكات وجهد وعرق
وأنفاس شقاء وكدح وكفاح .. تذكرت انها قطرة فى بحر يموج
وانها فى حاجة إلى اتصال أعمق وأوثق .
قالت للبنت وهى تلتصق بها أكثر :
- سنجرب أماكن أخرى ولكن لن نكف أبدا عن محاولة
الاتصال .

المسرة

يونيو

لحظة اتصال

تلفتت تحاول أن تأتي بمشهد للصورة حولها ..
ماذا لو أنهم كلهم دقوا فى لحظة واحدة .. استجابوا
لها .. وقفزت تسد اذنيها بأقصى طاقتها للضغط
عليهما لتسكتهما .. كادت تدخل عظم رأسها اليمين
فى عظم رأسها اليسار والرنين المتوحش لا يكف ..

- تلفتت تتأكد أن لا أحد انتبه لخاطرتها المجنونة .. أبعدت
بيديها عن رأسها . العالم صامت كما هو والكل يتحرك وحده كان
لا أحد يدري أن هناك آخر فى المكان .. واصلت البحث عن
أكثرهم دقة وأعلامهم تقنية .. ومرة أخرى سألت البائع الوحيد
الذى يقف بالطابق الضخم الذى يضم أحدث أجهزة الهاتف بأكبر
أسواق المدينة .

- ممكن أن تساعدنى فى اختيار الأفضل ..؟

- ومرة أخرى تشاغل بشئ لا يفعله . وكررت الغضب دون أن
تنطق فقد اعتادت ألا يسمع أحد - حتى وهو يسمع - وحمدت الله
أنها احتفظت برغبتها فى مد حبال السود إلى مرسى إنسانى حتى
لو مع بائع طيب يأخذ ويعطى معها ولو فى زمن لا يمتد بينهما
إلا فى لحظة ..

- كانت تريد أن تقول له :

- أريد هاتفًا يحس وإذا وضعتَه على أذنى يلتقط الإشارات القادمة من العقل والقلب ويصلنى بإنسان يفهم ويحس ولو على الطرف الآخر للكون .. وكانت تريده أن يلتقط الرسالة ويقول :
- هذا الجهاز .. وهو يقول لك « إجعلى قلبك يرفع صوته قليلاً » .

كانت الرفوف البعيدة والقريبة تمتلئ بكميات مدهشة .. والمعروض خارج العلب لا يقل عما بداخلها .. كأن الأرض انفجرت وقذفت من قلبها بملايين من أجهزة الهاتف بمختلف الأحجام وبكل الألوان ، ومع كل جهاز شرح مطول بلغة بلاده وبلغات الدنيا الحية وهى عليها أن تقلب وحدها بين هذا كله وتختار الأحداث والذى يتناسب اقتصاديا والمبلغ الذى تسمح به ميزانيتها .

ولأن الشكل يشكل جزءاً أساسياً من علاقتها بالعالم فهى تريده قطعة فنية إذا وضعتَه على مكتبها فى الخان الصغير الذى تعيد تأسيسه للمرة الثالثة خلال خمس سنوات حالكة من عمرها ولأنها تعمل بالديكور والإضاءة الداخلية وتلتصق بالطرز العربية التى أحببتها ميراثاً عن أبيها وعشقا من روحها للعالم الذى زرعه أبوها فيها وهى بعد حبة صغيرة - مثل حبات القمح والفول التى علمها أن تزرعها فى القطن وتتسلى بها عن غياب أمها وتملاً بها فتحات المشربيات الخشبية فى بيتهم القديم فى الحسين ، لتظل كما كان يقول لها فلاحه مثل أجدادها ومثلما علم اصابعها الصغيرة كيف تلمس النحاس وتطرقه وتشكله كما تريد وكما كان يقول لها وهو يضعها على ساقه ويداه لا تكفان عن التعليم

والتصحيح والتشكيل وبين يديها الصغيرتين يضع قطعة ويقول لها « إذا أحببتها من قلبك ستتحول من صلب إلى عجين وتصنعين منها ما تريدين مثل ما تصنعين العرائش من عجين كحك العيد » .. لو تجد هاتفا يحمل الطابع العربى حتى لا يخذش روح المكان .. لو عرفت اليابان أو هونج كونج أو أيا من النмор التى تزار الآن فى جنوب شرق آسيا نهما لالتهام اقتصاديات العالم لا رسلوا مخترعهم الجديد غدا وعلى عنوانها بالتحديد فى ريع السلحدار بخان الخليلي .

عادت تجرى محاولة لاختيار أخرى عليها تهتدى إلى جهازها الخاص والمتميز بين كل هذه الأجهزة ، وعادت خواطرها المجنونة تشكل علاقة ذات مذاق خاص بالعالم .. ماذا لو تكلموا كلهم مرة واحدة وانفتحت الخطوط على بعضها ..

« آلو .. صباحك جميل .. متى تغرب عن وجهى إلى الأبد .. أحبك .. اختصرى وهاتى من عند النقطة الأخيرة .. قلت لها شبيبك لبيك .. ويعلم الله ماذا كنت أطلب منه ساعتها .. ولكن هذه المرأة كذا وكذا .. يا غبى وهذا ما يجعلها الأفضل والانسب .. أقسم لك .. برجاء تحديد العام الذى يقع فيه القسم للبحث عن معناه فى القاموس .. هذا كثير يا حاج .. وماذا نقول للبركة .. وهل نرفض النعمة .. الأرض تتكلم عربى يا باشا والبورصة تتكلم أنجليزى وفرنسى .. حظ السماعة يا إسماعيل .. الله يخرّب بيتك .. يا إسماعيل أين أنت ؟..

دخل تشويش فى الخطوط ودوت صفارة عالية ثقتبت أذنها واكتشفت انها وهى تنتصت على هواتف الدنيا وضعت على أذنها

سماعة هاتف صورته من المعروضات ولم تنتبه انها للجهاز المتصل بالخط الرئيسى فى الدور الاول وأن إسماعيل المنادى عليه هو هذا الشاب التائه الواقف أمامها .. وصعد شاب من الدور الأول يزجره .. واشتبكا .. وابتعدت بسرعة وهى تعتذر عن خطئها غير المقصود .. وبالدموع ضحكت للمشهد كله ولتليفون العمدة القديم الذى يشغل ركنا هاما فى المعرض الكبير وإن كان يبدو كالغريب بين الأجهزة الحديثة رغم ما أضافوه إليه من تطوير ونزويق .. وكان ما زال يحمل اليد التقليدية التى كان يديرها الخفير لينادى على المركز .

وتذكرت ليالى الريف القديم لما كانت تسافر عند أمها وزوجها رجل الأمن الذى تزوجته بعد أبيها والصمت المطبق ليلا ونهارا على العالم هناك .. وليالى حنينها الطويل والمفزع للعودة لأبيها وعالمه المليء بالفن والجنون والصخب .. لطالما تأملت أمها وتساءلت « ماذا أحببت فى هذا الرجل الساكن الجامد قياسا إلى أبيها الذى كانت الدنيا تسكن بين جنبيه » هل ظلمت أمها لما ابتعدت عنها ولم تسامحها قط .. لم تنس قط الجملة الأخيرة التى قالتها لها قبل أن ترحل :

- قد يكون أبوك الأفضل .. ولكنى كنت صغيرة لم أفهم ولم أكن على قدر وسعه للدنيا .

جملتك الأخيرة .. لو لم تقوليها - رحلت يا أمى وظل الإرسال لا ينقطع بنبذيات الألم ومحاولات الفهم التى لم تحدث وأنت فى الدنيا وبينى وبينك بضع خطوات .. الآن وعدد الخطوات غير محدود والمكان غير موجود .. اتصالى بك لا يكف .. هل ظلمتك

عندما لم أتصل بك كما يجب .. لماذا لا يحدث الإرسال دائما فى أوانه الصحيح .

أشتياقها إلى التواصل الإنسانى بعد أن نضجت وسافرت فى العمر إلى أربعيناته وأدركت كيف تشدد الحاجة إلى الاتصال كلما كبرنا وحاصرتنا الأيام والآلام وانكسار الأحلام والرغبات والاقتراب من نهايات الأشياء ، عادت تقول وهى تحاول أن تغلق خط الألم :

« كان يمكن أن أمد لك يدا أفضل وتمدين لى يدا أكبر .. ولكنك لم تعرفى .. ولم أعرف .. »

فى ركن بعيد يختبئ وراء صرح عال من الأجهزة اختبأت تمسح دموعا اكتشفت أنها غسلت بخديها والتقطت من بعيد نظرة لما حولها تطمئن أن حركتها الخارجية وصخبها الداخلى بعيدان عن العيون تماما .. وارتدت نظارتها الأنيقة وعدلت خصلات شعرها الأسود الطويل وشدت قامتها وثوبها الأنيق وتأكدت أن مشهدها الخارجى يؤكد - يبالغ الكذب - قوتها وسيطرتها على زمام نفسها .. وعادت للبائع تستنجد به وتستخدم اسمه الذى عرفته وهم ينادون عليه فى خط الاتصال الداخلى :

- يا أستاذ إسماعيل لقد انتقيت أربعة أجهزة .. أريد خبرتك معى لأختار أفضلها .

كأنه يوغت بالنداء باسمه عليه .. وكأنها ضربت الرمال أو استنطقت الغيب .. وكأنه لم يسمع بقية السؤال وأجاب دون أن يفكر للحظة :

- والله إسماعيل ما هو عارف حتى اسمه .

جن جنونها وكانت تقفز كل عقاريت غضبها خارجها وتنشب
أظافرها فى رقبته وتسأله : لماذا لا يعرف وأن من حقها كعميل
أن تحصل على الإجابة الصحيحة .. نظرت فى وجهه وأحست
بقلة حيلته .. وأفلتت منها قبضة يدها لتضرب طاولة أمامها
وعادت تحاول الاعتماد على خبراتها الهندسية المتواضعة وتختار
وفقا للإرشادات المكتوبة .

وهى تقلب فى الأوراق المرافقة للأجهزة وتحاول فك الخطوط
وترجمة اللغات تاکدت أنها لم تكن مخطئة وأن هناك عيوننا ترقب
حيرتها وأن كانت تحرص على عدم اقتحامها ..

التقطت مشهدا جانبيا لوجه جاد له خطوط حادة ونحيلة
تقاطعت معه أكثر من مرة أثناء بحثها وأكثر من مرة شدتها
جديته وعلمية أسلوب تفاعله مع الأجهزة وقاومت نظرة جانبية
تريد أن تخطفها مستسلمة لخطوط اتصالها التى تدخل بسرعة
مدار جانبية نوع - من البشر أحست أنه يحمل الكثير من
صفاته.. ودون أن تراه بالتصديد رأت بحسها الداخلى أنه - وعلى
وجل - يحاول أن يخطف نظرة دمثة يطمئن عليها .. ولأنها
اعتادت من نفسها كثرة الأوهام .. ولأنها اعتادت من الزمن
انقطاع الاتصال .. ولأنها .. ولأنه - وكما يبدو من خطوطه
وخطواته الجادة .. لا المرأة ولا الرجل اللذان يلتقيان فى لحظة
مخطوفة من الزمن أو على أرض صفة الأماكن العابرة ..

أصدرت أوامر مشددة لنفسها بتوقف الحوار الداخلى وأن
تصادر رؤاها الخاصة وأن تنهى بسرعة هذه المهمة التى ثقلت
وطالت وأن تأخذ واحدا من الأجهزة التى انتقتها وتفر سريعا من

■ لحظة الاتصال ■

هذه السوق الباهظة الفخامة والذي يبدو بلا بداية ولا نهاية ويضم تقنيات بملايين الجنيهات لأحدث أجهزة الاتصال يوضع وسطها عامل جاهل بكل شئ ويترك الناس تتخبط وتنتقى في الأغلب مالا يناسبها ومدت يدها واختارت ما رأته الأفضل بين مجموعتها المنتقاة وذهبت للبائع ليكتب لها إيصال الدفع ..
وهي تنطلق كالصاروخ المندفع بقوة الغضب سمعته يقول لها بهدوء ودمائة الدنيا :

- هذا الجهاز ليس الأفضل - اسمحي لى من خلال خبرتى الهندسية أن أساعدك فى الاختيار .. وعفوا للاقتحام ، لقد ترددت طويلا وأرجو ألا أكون قد تجاوزت حدودى ..
ومن يدها أخذ الجهاز الذى اختارته وقدم لها جهازا آخر من مجموعتها المختارة وقال :

- هنا القنوات أكثر مما يجعل التشويش أقل والصوت أوضح ومدى الانتشار أوسع .. وفارق السعر بين الجهازين لا يذكر .
وواصل الشرح عن امتياز هذا الجهاز بالتحديد .. وواصلت الاستماع إلى صوتها الداخلى :

- إذن مازال هناك بشر قادر على الاستماع إلى نداءات الاحتياج وقادر على أن يرى ويسمع نداء قادما من بعيد عن وجود حالة احتياج إنسانى ويتلقى الإشارات ويسارع إلى تلبية النداء .

إكتشفت أنها مازالت تتعثر فى دهشتها وأن رد الفعل لا يليق بنضجها وعمرها وقطام روحها على الوحدة والاعتماد على الذات فى كل شئ .. تنهدت بعمق ما أوجعها العطاء بلا مردود حتى من

أقرب البشر وأسلاك الاتصال المقطوعة رغم حبال الكلام الممدودة ومشائق المصالح والمسئوليات التي علقت فوقها عمرها وفاء لشرف الالتزام بكلمة .

عادت إليه فوجئته قد أخرج النشرة الشارحة وبدأ يفهمها أسباب تميز هذا الجهاز بالتحديد .. ومن حافظته أخرج بطاقة تحمل اسمه وتحدد تخصصه النادر في هندسة الالكترونيات .. وضحك بدمائه وخرج وهو يقول لها :

- إطمئني واشترى هذا الجهاز بضمان هذه الخبرة .

وترك البطاقة في يدها وسارع بالانصراف كأنه تدارك أنه أطل اقتحامها .. وتوجهت للخزينة قابضة بثقة على الجهاز الأفضل .. ولكنها أحست أنها تريد أن تقبض أوثق وأقرب على اللحظة وتتشبث بتفاصيلها .. دفعت وتسلمت .. ومساحة من الأمن امتدت داخلها للمس الكهربى الذى أحدثه التماس مع نوع نادر من البشر مازالت لديه بقايا حواس الاتصال ويجد متعة التلبية دون أن ينتظر النداء .

للهولة الأولى لم تصدق أن هناك من تلقى رسالة حيرتها واحتياجها للمعاونة رغم أنها لم تنطق بها ، بينما رسائل العمر المدفوعة من فواتير اللحم والدم والمشفوعة بالرجاءات والتوسلات لا تجد إجابة واحدة .. بالأمس فقط كانت قد قررت أن تترك آخر رسالة مسجلة متوقعة ألا تأتيها إجابة كالمعتاد بعد أن انتهى الاحتياج لها ولستطاع العيال أن يقفوا على أقدامهم .. وبعد أن كادت ترتكب جريمة قتل ترد بها على قلة الأدب وإنعدام المردود الإنسانى . تصالحت مع نفسها أو تخاصمت فى اعتبار

أن الجريمة وقعت ولكن دون أن تتحول إلى قاتلة .. وقعت مع نفسها ضكاً بالقبول بشروط زمن الانانية والعزلة .
« ولو جاءوا لن تستطيع أن ترد قلبها الخائب - » .

وهي تضحك من قلبها المئخن بجراحة قالت لصديقتها آخر الليل قبل أن تنهى مكالمة كانت تطمئن بها أنه مازال لها صوت وهناك من يتلقاه على الطرف الآخر .

« ألم يعملوا الأعمال لتميل القلوب وترق .. تحتاج القلوب الطيبة إلى عمل يجفف منابع رحمتها ويملؤها بالجساسة والقسوة .. سأبحث عن دجال يضحك على مثل كل الذين ضحكوا .. » .

وهي تخلص نفسها من زحام سوق الهاتف وتتعجب للبشر الصامت الذي يبحث عن أحدث وأقوى أجهزة الاتصال تنبّهت أنها تلهث من فرط ما كانت تسرع في خطواتها..

جلست تلتقط أنفاسها داخل سيارتها .. حاولت أن تستجمع تفاصيل ملامحه .. تنبّهت أنها لم تره إلا من مشهد جانبي لم يأت بتفاصيل وجهه بالكامل وأن كل الملامح التي أحببتها كانت لإنسان يملك حلاوة إدراك حاجة إنسان يقف إلى جانبه ويحس بيد تريد أن تتلامس مع يد أخرى فيمتد إليها ويتلامس حتى دون أن تمتد اليد .

- كانت عيونه .. لون بشرته .. أنفه .. لا تذكر بالتحديد إلا تقاطيع حادة وواضحة ، تعلمت من دراسة الفن أنها لا تكون إلا للبشر شديدي الحساسية .. حاولت أن تثبت له صورته على شاشة ذاكرتها قبل أن تغفل منها تفاصيل اللحظة ..

وجدت صورة لوجه لا بد أن يكون هو صاحب الملامح

الجانبية التى تتذكرها أعادت التذكر .. تأكدت أنه هو .. باغتها المفاجأة ثم تذكرت أوامها وأحلامها التى من فرط قوتها واشتياقها للاتصال الإنسانى تصبح أحيانا حقائق تتحرك أمامها.. نظرت من النافذة تطمئن من المرأة الجانبية لخلو الطريق لتتحرك وتمضى وجدت الوجه كاملا فى المرأة الأخرى .. وخرج رأسها من السيارة تتأكد أن خداعها البصرى وصل إلى حالة مرضية كاملة .

وجدته يجلس فى السيارة التى تقف خلفها يتأملها وينتظر بهدوء .. والمندى يكرر صيحته التى سمعتها قبل دخول السوق « لا تتأخرى فالسيارة خلفك لن تتحرك إن لم تقسحى لها مساحة للخروج .. » .

هل فهم من رأسها الذى تعلق خارج السيارة إنها كانت تنادى عليه .

نزل من السيارة وجاء بابتسامة شديدة التهذيب والضائعة فى ارتباكها الهادئ وسألها إن كان بالسيارة ما يعطلها عن الحركة .. هزت رأسها ومن حقيبتها أخرجت بطاقة صغيرة ملونة تحمل اسمها وعنوان الخان تحت رسم لضوء يشع من داخل قنديل من مشغولاتها النحاسية وقالت :

- ستكون سعادة كبيرة لو تناولت معى ومع مجموعة من الفنانين الصغار الذين أنقل إليها شتلات زرع الفن كوب قرفة باللبن .

امـرأة

يونيو

امـرأة يونيو

تذكر .. لا .. ولم تنس أبدا .. حتى وانت في
سدرة الجاه وقلب الصورة تضيء وتطفىء .. وتكبر
وتصغر وتظهر وتخفى وتميت وتحىي .. تذكرت
جيذا ما عشت عليه .. لا تصعد وتظل تصعد إلا
والدور يتكاثر والعقول تهزل .. كلما انكشيت
الراءوس وفرغت كبرت أنت وازداد حجمك .

خطمت وأحكمت أسلحتك بين يديك .. تخلصت من الذين
يظنون أنفسهم محترمين وموهوبين ويملكون أن يشقوا طرقهم
ويتقدموا وينظروا بازدياد لك ويفضحوا وجودك ويجمعوا الناس
حولهم .. إنهم الصنف الملعون لا يستطيع أن تبقى تحت سيطرتك
.. إنهم الشوك .. لا ترعه .. اقتلعه قبل أن يكبر وتقتلك ..
العارون من القيمة والشرف والتابعون .. إقتن من أنت موهبته
وعينه التي ينظر بها وليكن أنفك التي تتشمم ...

أحرص على الصنف الذي لا يحيا إلا في مستنقع .. دربه
ليكون كلبك المخلص .. إنه خادمك الذي تصبح ربه .. ذلك
الصنف الذي لا يشبع .. وكلما مكنت له سال لعبه وذهب عقله
وملكت فعله .

النساء .. تاريخهن معك مسجل .. أدركت مبكرا أن أصحاب
الغرائز المنحطة هم أكثر عددا من أولئك الذين يتمسكون
بالمبادئ .. وأولئك الذين يدعون النبالة .. عرفت أن أجسادهن

طريقك إلى ماخططت وتخطط .. للوطن وتأمينه .. البنات تعمل ...
الشعارات الفجة التى تدرت وعشت عليها ... أصبحت سلعتك ...
كيف أدركت السر وصنعت الأقنعة وللظاهر البستها وماتريد
جعلته خافيا وباطنا .. وكل ماتعطى ويأخذون يجب أن يبقى
قشرا يتساقط لايصنع جذرا .. ومن النساء اللائى كنت تتقاسم
معهن أجورهن إدخرت المتفردات فى المستقبل .. وضعت
تاريخهن فى ملفاتك .

زمبرك هذا النوع من النساء تعرف كيف تملؤه وتطلقه .. هن
أيديك التى تحفر ليقع الغاؤون وتعلو أنت .. لقد كانت نساء
الزمبرك فرخك الذى أفرخ مستقبلك .. عرفت أن العشش يجب أن
تمتلئ بالفراخ ... وأن لايفلت ديك أو تيس برغبته .. جاثعون بين
أرجل الفراخ تتلصص عليهم وتثبت المشهد وتطبع وتسيطر ..
كيف أدركت وحفظت وطبقت تعاليم أجدادنا ... أبدا .. لا علاقة
للسياسة بالأخلاق .. والشرفاء لا يصلحون لشيء .

أدركت وحفظت .. لاتنفذ إلا عبر الراكد والسعطن الفاسد ..
الفضيلة خيمة وحجة الضعفاء .. تخطط لتقوى وتكبر وتملك
وتتحكم وتجمع أصحاب الغرائز المنحطة وتغدق .. بممتلك ينبت
وسيزل ينبت ذراعنا حيث نريد أن تمتد أصابعنا وتفل .. وتكون
ذراعنا فى جسدكم .. ونكون خلفكم .. إذا كانوا قد زرعوا الأرض
فقد انتقينا بذور الفساد وخططنا لنجعل أعواننا الأقدار .. إسق
البذور وانصب الشراك .. ولجعل الذباب يلتصق بالعسل .. عسل
نساك لجعله بحرا ضاع قاعه .. من يقاوم الغرق يمتلئ حلقه
ويفرغ ما ملأ بطنه ويفقد الجاه والسلطان والنفوذ .. إضحك فى
بطنك لسذاجتهم .. سنطلق عليك رصاصا لا يصيبك ويختلط مع
رصاص المتهوسين منهم .. أعددنا النار وأنضجناهم فوقها ..
وأصبح فقرهم وجهلهم وقودا لها .. العنف والإرهاب أفضل

طريق للسيطرة .. سليم تنفذ من رصاصنا وإلى قوتك يضيفون غطاء ربهـم - أنشر من ينثر الاستسلام والبلادة تحت الغطاء والعقول تقول بغير علم واليد تقبض بغير عمل لتحركها ونحركها كما تريد .. وكما نريد فقد أصبحنا واحدا ... ضخ وادفع ووفر ما يعلف الحروف ويسمن الكلمات حتى يغطي الدهن المعاني ويضيع العظم والعضل .

سلمك كانت درجاته من لحم النساء العارى .. فى الظلام وأنت تصعد كنا نرقبك .. عرفنا أنك ولدنا الموهوب .. الغواية والدهاء الذى تمتلك لايمتلكه إلا الوارثون منا .. أدركت أنه لايد من إقامة الفساد وتثبيت جذوره لتقيم مملكتك ونقيم مملكتنا ونجد أرضا لأوتادها .. إنه سرنا الذى سيودعه علماءنا فى الخلية .. لايزهـب الكورمزوم إليك إلا لو لقت سلالتك منا .. إنك تمارس الغواية كأنك تتنفس .. إنها درجة لايرقى إليها إلا معدودون ظاهـرهم من أهلهم وقلبيهم منا .. لقد حرصنا أن نندس فى اللحم لنخرج من أهله من تجرهم السلالة - إلينا - انكم فى الظاهر منهم وفى الباطن من أبناء لحمنا .. تذكر شعر شمشون فوق رأسك .. لاينبت إلا فى المراعى التى اكتشفناك فيها .. لو لم تسق وترع جيدا تسقط مملكتك ومملكتنا .. ضع الأكفان على تلك العضلة بين الرئتين واضرب على أكثر الأوتار حساسية فى ذهن الناس .. إنها رغباتهم الأنانية التى لاتشبع وتجعلهم طوع إرادة من يريد أن يشتري ويدفع .. إنهم ناسك فاجمع ماتستطيع منهم واملا بحرك بالعسل .. وإحقن الرءوس بلها يكبر الجهل ويستشرى الفساد بينهم فيزداد إطمئنان قلبك وقلوبنا .. وتتقدم ولاتتوقف .. لم يكن لمطامعك حدود .. تذكر دائما عبر التاريخ ما الذى روض الحيوانات الوحشية .. هؤلاء الاغيار الذين ليسوا منا ونضحك على أنفسنا ونطلق عليهم الناس مثلنا .. إن الشعب سواء كان من

العامّة أو غير العامّة فإنّه ينقاد دوماً بعواطف متقلّبة وبالخرافات والعادات والتقاليد وبالنظريات فإملاً بهم كل ما تضع يدك عليه يزدّد نفوذك ويقوى سلطانك وتكبر لقد كان الظلام ملعبك صنعت فيه مستقبلك .. عرفنا مؤهلاتك لما أدركت مبكراً أن الخداع والمكر طريقك والشر هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ الخير .

وأن الغاية تبرر كل وسيلة إليها .. وأنت تأخذ شرائط الغاويات من بين سيقانهم لتدفعها لرءوس مؤسستك ليخدعوا رؤسهم ويديروا المملكة لحسابهم .. وأنت تخلص وتبدع فى مهمتك حتى أصبحت لا تنافس فى جلب الغاويات واستخدمهم وإغرائهم وارهابهم .. ولا تنس نصيبك فى جيوبهم .. وتتطلع أن تأتيك صنائيرهم بصيد أكبر لك وتمد بصرك وأنفك واستذلاك لترفع سلمك من اللحم العارى وتديره لحسابك الخاص .. عرفت أنك يجب أن تظل مختفياً حتى تتمكن جذورك فلا تطيرك ربح ولا تسقطك زلازل .. جهدك الذى بذلت فى شبابك خططت ليعيدك ويثبت أركانك .

رجل الكنترول والتأمين .. كان اسمك فى أوراق تحقيقاتهم فى واحدة من القضايا التى حاولوا أن يحاكموا فيها أسباب هزيمتهم .. كنا نجمع الأسباب لنرعاهما ونرعى رعايانا من المخلصين الذين شاركونا صناعتها .. كل من يشارك فى صناعة نصرنا وهزيمتهم يصبح منا .. كنا نخزن النار ونحبك المؤامرة حتى يؤذن أوان الاشتعال ... بأيديكم وضعت الخية فى أعناقكم وقطفنا الثمر .. فى بنوكنا السرية للسيطرة نضع أرقامكم وأسماءكم ومخططاتكم وخطط مساعدتكم وحمايتكم .. وفى أرصدة السحب وحسابات التهديد نضع أسماء أعدائنا وأعدائك من ذلك الصنف الملعون الذى لا يباع ولا يشتري .. لا تأس ليس

صعبا أن تجد لبعضهم ثمنا ... الأسوأ منهم الذين لا يستسلمون..
عيوننا عليهم ..

يموت بعضهم فى حوادث انفجار أو احتراق أو اغتيال .. هم
الذين يختارون شكل موتهم ووسط الاغيار ننادى بما كانوا
ينادون به .. منذ الأزمان الغابرة كنا ننادى فى وسط الجماهير
بكلمات الحرية والمساواة والأخوة وهى كلمات مازالت الببغاوات
تردها حتى اليوم بلا انقطاع وهى تسعى من كل ناحية الى هذا
الطعم .. خلاصك منهم تميمتك - المساواة لا توجد فى الطبيعة..
وحكمائنا عرفوا إنه لا وجود للحرية لأن الطبيعة ذاتها خلقت عدم
المساواة فى العقول والأمزجة والقدرات وأنها أخضعتها كلها
لقانونها .. أدعياء الفضيلة والموهبة الملعونون .. اخفائهم
وأسدال النسيان والاهمال عليهم مهمتك .. عليك أن تختار بين
وجودك ووجودهم ... الوجودان لا يجتمعان .. المعركة حياة أو
موت حسابات المكاسب والخسائر ترقبها أجهزتنا ... رجال
المحفل المقدس عيونهم لا تغفل ... لا يحكمنا مثلهم قانون
المصادفة ثم تهزمنا مفاجأته .

يوم صدر الحكم بتجريمك وطردك ولم تياس .. عدت تستنزل
نفسك وتتسأل تبحث عن موقع جديد لقدمك وأنت تعرف كيف
تنصب سلمك وتصعد .. هزيمتهم لا تطير عقلك .. هزيمتك
وطردك محنتك .. الصياد يعرف كيف يرمى شبابه مهما علا
الموج واشتد الليل حوله .. لك زرعك الذى يجب أن تسمده ليعمل
ساعة تعاود الامساك بطرف السلم لتصعد .. ولما ذهب اليها
تستعيد حلفك القديم وتعيدها إلى التجنيد ... قنينات الدم
المحفوطة فى الأقبية والتي تجمع من دم أعدائنا فى معارك
انتصاراتنا واستعادة أرض أجدادنا ... تضاف قطراتها للانتخاب
فى انتصاراتنا الكبرى وعندما يعلن تشييد ركن من أركان مملكتنا

فى أى أرض .. أما اذا حدث التشييد فى جزء من أرض الحلم فالأنخاب كلها تصبح من الدم .. أمثلات المرمريات والكريستالات بالدم الساخن ولكن لم يكن لها حرارة نسائك الغاويات اللائى يمارسن الغواية كأنهن يتنفسن الهواء هاويات الترف اللائى ارابتهن طوع من يدفع وليس لأطماعهن سقوف ورغباتهن لاتشبع .

وهى

قصتها محفورة فى تاريخنا البعيد .. سالومة بنت هيروديا ... تختلف الاسماء وتتلون الأقنعة وتبقى اللبؤة واحدة .. عثرنا عليها وأيدينا تبحث عن شركاء لدعم خططنا القادمة ... وجدنا مؤسستكم تضع القواعد وتحث أرضكم لنا وتشيد .. خدعوا رهوسهم وأداروا مملكة النساء لحسابهم وحسابنا ... العطب دب فى الأوتاد والجبل يتخلخل ... وهى واحدة من نساء المملكة .. كريستالة الجسد قبيحة الوجه عجفاء الصوت لا تملك إلا موهبة الغواية والشر .. والاغراء الذى تصنعه بجسدها يطارده وجهها القبيح ... بخس ثمنها فى سوق نسائكم .. تبحث عن يدفع أكثر .. سندفع لها وتعطيك وتعطينا وتكون لك ولنا وهى تعيد تاريخ سالومة وتأتى برءوس تحتاجها ونحتاجها .. عبر جسدها وامتلاء جيوبها الوصول إليها أقرب من ذراعك الى جسدك .

فى ملفات السيطرة معلوماتها تتجمع وأرصدة الثقة فيها تكبر .. تردد فى كل مكان أنها ابنة ضابط بالجيش .. تكذب بعدد شعرها الطويل المصبوغ بأكل العصافير .. لم يعرف أبوها الطريق إلى دراسة عسكرية وبذلقته الرسمية والعلامات اللامعة على كتفه جاءت بها له زوجته هيروديا وإخلاصه لرؤسائه .. هيروديا زوجته سبقت ابنتها سالومة الى السوق .. ومن صدرها المدلى كصدر نثبة جائعة أرضعتها الغواية وأورثتها الجسد

الترق الشاهق وفنون الصيد ورقصة الأفاعي وخلع الاقنعة
ودست لها مع وجباتها المتعة وخلصتها من ذلك الهوس بما
يسمونه الشرف والمبادئ .

وهو

هذا الجنرال .. يتسلل فى الليل الى هيروديا .. يعشقها كما
يعشق الجلوس على الارض والدق لها فوق أغطية أوانى الطهى ..
وحدها رقصاتها التى تنسيه أصوات الدانات والانفجارات ...
نشوان بدوران هيروديا فوق رأسه .. يفتح ثوبها كمظلة وهى
أجمل مظلى تمنى أن يلتقاه بين ذراعيه .. تصير السيقان الطويلة
البيضاء قضبان ملبن تلف الأرض حوله - هذا المعتقل الحبيب
لو يختفى فيه للأبد .. يتحين قلبه على الكعب الأحمر .. يغسل
صدره بلعابه .. تدور هيروديا وتهتز .. تدور أرضهم وتهتز ...
ينبت للمملكة ضلع .. ويرتفع عمود وأعمدة ... يختل الجبل
ويتسع الشق ..

فى بدلة الرقص اللامعة الحمراء سالومة تقلد أمها .. تبرع فى
رقصة الأفعى التى اشتهرت بها .. على الأرض تدخل فى بعضها
ثم تتلوى وتتمدد وتصعد وتنصب جسدها عمود رخام فى الهواء
.. سامر الليالى يتسع .. رفاق الجنرال من هواة الخمر والنساء
والورق يتجمعون ... وسطهم سالومة كزهر تتفتح .. لم يعد
نصيبها من الرقصات المجانية خلف أمها يكفيها ... تريد أن
تقاسمها الريح ونصيبها فى حصاد الموائد آخر الليل والفرش
والجنرال ... بذرة الصراع بين اللبؤتين لن تقتلع من الأرض أبدا .
الغيرة بين البنات وأما ستحرقهما .. سالومة وهيروديا .. من
تسبق وتأكّل الثانية .. النار تتأجج والحى الهادئ الجديد على
أطراف العاصمة يسمع لليل صخبه وسهره وفحيحه والنهار
يشهد معارك المراتين حتى عرض الطريق وقسم الشرطة .

المصادفة .. النصيب .. القدر ... الجنون .. كلها ساقط البطل إلى طريقها .. بأول أموال جمعتها من عرق جسدها وعملياتها الخاصة اشترت سيارتها الأولى .. خنفسة صغيرة تجعل من يركب معها لا بد أن يلتصق فيها وهو الضابط الصغير الخارج من قشرة البيضة إلى الدنيا .. فرحته أكبر من وسعها .. عائد في أول إجازة من وحدته في خط القناة في ردائه العسكري الأبيض تضاعفت وسامته .. خشي على أناقته وهندامه وجهه الكواء طوال الليل ... على مشارف المدينة غادر سيارة الوحدة المزينة بالشلة من ضباط الدفعة الصغار مثله .. أحصى النقود في جيبه وقرر أن يضحى بها وينادى أول سيارة أجرة تجرؤ على اقتحام هذا الخلاء البعيد ويدخل بها حيهم في كامل الأناقة والأبهة ويتهاذى وينزل منها ويرفع رأسه إليها - بهية - حبيبته المنتظرة في نافذتها المواجهة لنافذة حجرته ... و.. ومثل جين كيلى نجم السينما الأمريكية في الأربعينيات في رقصته الشهيرة تحت المطر رقص الضابط الشاب بانفجار قنبلة من المياه تحت عجلات سيارة صغيرة مندفعة كالإعصار .. سقطت السيارة واستقرت في حفرة ضخمة يبدو أنها تحولت إلى خزان مياه .. تلقى كل رذاذ الانفجار وتجمد غارقا في مائه وطنينه .. لم يعرف الولد الغرير أن القنبلة أبدا لم تكن من مياه وأنه يحتاج إلى معجزة ليغتسل من طينه .. ولكن من يعرف ..

كما عرف من امرأة الخنفسة التي لم ير ملامحها من وراء الزجاج المغيب ولكن حكمت فيما بعد.. أنها لما شاهده في أناقته البيضاء وهى تندفع بسيارتها وهو يتراجع إلى الوراء لم تعرف متى كان للقمر وجه رجل وجسد حصان لم تر الحفرة ولا كان بالإمكان ولما وقعت فيها ظنت أنها حبست في شهقتها واحتاجت وقتا حتى تتبين ما حدث.. من وراء الزجاج أثارتها وسامته

ونسيت جدع ظهرها وجرح ذراعها.. تذكرت الوجه النحيل للملك فاروق كما كانت تراه فى صور صباه.. أول صورة لرجل حفظتها فى كراستها.. ثم نسيتها بعد أن ظهر الجنرال مع أمها.. أعاد الضابط الجميل الحلم القديم بملامح الفروسية التي يحملها فى وجهه.. لما رفعها بالسيارة وأخرجهما من المستنقع فتحت الباب ونادت عليه ليرى أن كان ظهرها انفتح وشدت شيئاً جعل ثوبها كله يقع عنه.. طالما تحسن رخام لحم الهوانم الوردى فى حيهم الشعبى وراء الجبل وطالما خاف أن يحيى الشوق الرخام بين كفيه.. تألم لحم الهوانم الحى بينهما حتى خشى أن يحرقه بهما.. وفى بيتها المتواضع المكون من طابق واحد - لم يكن قد أصبح .. برجاً بعد - عبرت بسيارتها وسط مشتل زرع انضم إليها وأصبح برجاً ثانياً فيما بعد أيضاً.. تجاسر أكثر من مرة ومد يده يحس ملمس الرخام البشرى ويتأكد أنه لا يحلم.

فى حجرة الضيوف خلع بذلته لتذهب وتغتسل.. وفى بيجامة ناعمة تخدر جسده بلمس الحرير الذى لم يتعوده من قبل.. ووجد نفسه ابناً لأمها وأبيها ضابط الجيش كما قدمته له.. لو حدث ما حدث فى حيهم الفقير لعاد إلى أهله غارقاً فى مائه وطنه.. لأول مرة يشم للفقر رائحة قهر وتعاسة واكتشف الفارق بين تقاليد أهله المتشددة وهذه الدنيا التى تحررت من العقد والتعقيد.. بعد أن فعلها اكتشفها. وجد أنه أسرع وخلع الدبلة الفضية وأخفاها فى جيبيه.. لأول مرة يكتشف أن الحلقة التى تربطه بابنة خالته ليست فى يده اليمنى وإنما فى رقبته.. أمه ومحبتها وتقاليدهم ووفائهم لهم وقصة الحب التى جمعتها منذ الثانوى ببهية.. وطريق الجبل ومغاراته ومغامراتهما.. وولعها به وجنونه بها وخوفه عليها فى ذروة لحظات الاشتياق إليها وصورته التى طبعتها فى ظهر آية الكرسي ولا إله إلا اله محمد

رسول الله المقسومة بينهما كيف يخونهم ويخونها..
 المعركة القديمة بين اللبؤتين لم تكن قد خمدت ناراها..
 الشمطاء العارية والغاوية القادمة.. هيروديا تريد سالومة بعيدا
 عن طريقها.. فتحت البيت للضابط الغرير وأشعلت الرغبة وسكبت
 الوقود على النار المشتعلة.. وأحكمت هيروديا الخطة.. البيت
 الصغير نواة الصروح القادمة على طرف طريق الضابط الشاب
 فى ذهابه وإيابه.. مسحورا.. مسلوبا أصبح هناك.. أصبحت
 الرغبة طريقه.. تلك الليلة تواطأ نزيف الأمطار.. لماذا لا يبيت
 الضابط وسطهم حتى يسكت المطر ويغادر إلى وحدته فى الفجر.
 كان لم يطلع بعد.. فالإظلام كان كاملا.. استحال عليه
 أن يفهم ما يحدث حوله.. أرجعه أكثر من مرة إلى كابوس
 سيصحو منه.. امرأة لها وجه هيروديا تندب وتلطم وجهها وتشق
 صدر ثوبها.. ورجل بطول الحائط وعرضه كان له وجه أبيها
 مضروبا فى أضعاف حجمه الهائل.. كان يرفع مسدسا فى وجه
 له ملامحه القديمة وجسد شبه عار.. من خلع له ملابسه ووضع
 امرأة بجانبه.. سالومة من فرط تبديل أقنعة وجهها الملونة كان
 يشق عليه أن يتذكر لوجهها ملامح محددة.. فى الكابوس الذى
 كان يحدث كان لها وجه الشيطان بعد أن تداخلت وامتزجت ألوان
 واشكال جميع أقنعتها.. ومن صيحاتهم فهم أن وجهه يحمل
 بصمات ألوان وجهها.. فى البداية اعتقد أن البقع الحمراء على
 الفراش وقعت من وجهها أو من وجهه.. كانت من فرط ما سقاها
 من زجاجة فارغة إلى جوارهما فى دوار وغائبة عما يحدث لها..
 سكران بغير خمر كان الولد.. مذهولا لا يصدق يضحك فى
 هستيريا.

على المشهد الذى سمعه وكتبه.. الآن يتأكد كيف أصبح للوالد
 رتبته العسكرية بغير علم ولا ماض عسكرى ولا تاهيل... يهز

رأسه ويقسم لهم كل شيء يصبح ممكنا مادام النصب أصلا... إستعداد المشهد الذى سمعه ولم يصدقه عما يحدث فى صحراء المعادى خلف مستشفى الكبير فى الخيمة المجهزة بمستلزمات الليالى... يحمل فريق ضرب النار مهمة احياء الليالى - فى طابور عسكرى ووضع الاستعداد لاطلاق النار يشهر أفراد النرجيلة والجوزة بعد اعداد الاحجار وإيقاد الجمرات وسائر مطالب المزاج والسلطنة - بالخطوة العسكرية يتقدم السيد المبجل والدها - يتقلد شرف قيادة قوات ضرب نار المزاج.. أوصلته هيروديا اليه فبعد أن رحب بالجنرال عضوا فى الأسرة ترقى إلى مرتبة الخدمة فى الخيمة وتكفل اخلاصه وبراعته بضمه إلى الكادر العسكرى ثم رقى إلى قيادة فريق النرجيلات.

هستيريا الضحكات وترديد الضابط الغرير وسط هذيانه لوقائع تكوين فريق ضرب النجيلات زاد المشهد جنونا.. مدهول لا يصدق أنه فعل ما لم يفعل استغرق وقتا ليفصل بين الوهم وحدث ما يحدث ولماذا امرأة على صورة أمها تقاوم وتشد مسدسا من رجل على صورة أبيها.. كان مازال يبحث فى الغرفة عن المتهم بسرقة شرف سالومه.. عرفه عندما أجلسوه الى شيخ كتب عقدا وعرف أنه قد أصبح زوجا لامرأة الخنفسة والحفرة والمستنقع.. ومائدة اللحم عارية ومفرودة أمامه وقد أسكرها الشراب الثقيل الذى عادت إليه حكى كيف دبروا وأوقعوه وضحكوا عليه.. تجمد الرخام وفقد لونه الوردى وعرفه ميتا ومتجمدا لأول مرة.. سقطت الرغبة فانكشفت كل السوءات.. كانت هيروديا قد استردت أنفاسها وانطلقت كما خططت وحيدة فى ليالىها وظنت ان زمانها عاد وصفا لها وخلصت من منافستها.. وعادت ليالى الرقص تشتعل على دقات أوانى الطهى يعزفها الجنرال وهو جالس تحت أقدامها على الأرض.

جنت النار وأصابتها الحمى لما اكتشفت سالومة مؤامرة هيروديا لابعادها.. والضابط الغرير يقيم حصارا حولها.. الولد من العامة التي تنقاد بالخرافات والعادات والتقاليد ولا يكف عن ترديد ذلك الشيء المبهم الذى يسمونه شرقا.. حسنه له عيون تتحسس ما يحدث.. يريد الدليل بين يديه.. سالومة بدأت تعمل لحسابها.. المال والقوة شرهما لهما يجن ويجرف كل ما يقف فى طريقها.. رومانسية حلمها الخائب طيرت أبراج رأسها وأطبقت مطاردة الولد.. أصدرت حكما بالخلاص منه وجاءت بصاحب النفوذ الذى يستطيع وجعلت الولد يري..

أيها الولد المسكين لماذا تعود إلى وكرهم الآن...؟ فراشك مشغول وأنت لا تتعلم.. أمام المشهد مرة أخرى يفقد عقله ويهذى ويهدد ويردد أن ذلك الشيء المبهم عند سالومة والذى يناديه الولد بالشرف قد وقع عليه اعتداء.. ومرة أخرى لا يستوعب درسا من الدروس التى حاولت أن تعلمها له.. كن قويا تكن شريفا.. وتكن كل ما تريد.

... فجر آخر كان لم يطلع بعد فقد كان الاظلام كاملا... كانت قوة بأسلحتها الميدانية تحاصر البيت وتختبئ وراء الأشجار وتحت النوافذ.. الفرقة لتنفيذ مهمة انقاذ الضابط الكبير من محاولة اغتيال قام بها زوج ابنته.. الضابط الغرير كما لم يفعلها فى ليلة الاغتصاب لم يفعلها فى ليلة الاغتيال - كيف نفذوا كل ما لم يفعل... بميكرفون ترددت أصواته فى الفراغ المحيط والذى امتلا ببشر أحاط بأسوار البيت والمشتل الذى أصبح حديقة للبيت وقف جامدا يتفرج... نادوا عليه وكرروا النداء.. سلم سلاحك ولا تزدد موقفك تعقيدا.. دليل ذل من لا يفهم ولا يعرف كيف يدبر أموره ليكسب.. مكبل بالقيود.. مغسول بدموعه خارت قواه.. بالكاد تحمله ساقاه.. تهاجمه كوابيس ما حدث منذ ليلة

المستنقع وإلى ان عاد إلى بيت سالومة ووجدها تتغطى برئيسه.. والسيارة المصفحة تطوى الطريق إلى المعتقل حكي لزميله الذى نفذ المهمة... رق قلب الذى قبض على المقيوض عليه وأخذ من جانبه السلاح الذى لم يمسه وطوحه فى النيل والسيارة تعبره.. داخل المعتقل لم يسقط الاتهام لأنه لم يكن بحوزته سلاح ولكن لأنه استسلم وطلق سالومة ووعده بقطع لسانه وخزق عينيه عما لم يسمع ولم يشاهد ولم يعرف.

عاد إلى حيه وبسيته القديم يختبئ.. المستحيل فعلته الحبيبة القديمة حتى استطاع أن يطل على نفسه فى المرأة.. طلبت منه أن ترتدى ثوبها الابيض.. أجلا الزفاف حتى ينتهى من فرقة بوحده للترقى ليتزوجها الفارس الذى يليق بها.. انخرط فى تدريباته القتالية واستعاد فتوته ولياقته البدنية والنفسية.. فى دقائق السمر المخطوفة الهمسات تصنع نشرات أخبار خاصة.. وتردد الاخطر عما يحدث.. ويغادر حذره ويحكى .. قالوا له إن أمر سالومة أكبر مما ذهبت خيالاته ورأى أو سمع.. وأن خروجه حيا من وكرها ميلاد وبعث يحتاج نبیحة فداء وعدهم بها فى ليلة عرسه.. حكوا عن المؤسسة التى أصبحت من نسائها ورددوا إسم رجل التأمين الذى يقف وراءها.. وتهامسوا بشائعات عن اتصالاتها الأبعد... لم يصدق أن لها قوة إلا بالمستنقع وسيقع فيه كل من لا ينتبه ولا يحذر.

فى بدلته الرسمية ووسامته التى استردها ودرجته الأعلى تلمع فوق كتفه ووسام الصاعقة.. مولود من رحم الرحمة التى طبيته وضمدت روحه واستعادت له محبوبته.. عائدا من وحدته.. سانجا.. نقيا كعادته.. يظن الطريق سالكا.. يفلق عينيه فيرى وجه المحبوبة فزعا وذراعيها يصدان شيئا لا يعرفه.. لابد أنها أشواقه التى أنبتت للسيارة العائدة بها أجنحة.. الكشافات القوية فى

عينية تمنع الرؤية.. من قطع الطريق.. ومن أوقف السيارة.. ولماذا .. لا وقت لأسئلة.. والاجابات جاهزة .. فى غمضة العين انتهى كل شيء.. ومرت عجلات السيارة المعترضة فوق ساقيه وتركته غارقا فى دمائه.. ممددا وفاردا ذراعا.. والثانية مدلاة الى جانبه والبدلة العسكرية والاحلام الوردية.. ووجه بهية... غطى الطين كل شيء..

من يقف فى طريق سالومة يفقد ساقيه وذراعا فوقهما .. كان الاتفاق ان يفقد عمره.. لا أحد يمشى فوق أرجل الندم.. وسالومة نار من يقترب منها يحترق.. واحترق وسكن المقعد للأبد.. وانطلقت هى تشق طريقها المفتوح إلى المستقبل.. وفى مؤسستكم تعمل وتجد فراشات الليل الغاويات.. تعجبك جسارتها.. صنف من الفراشات يستسلم لحمايتك.. على ناصية الطريق حيث تنتظر لتقبض .. هى كادت تشق بطنك.. لم تعد تستند إليك وحدك.. دخلت أنت فى جلدك تتربص لتعرف.

كنا نؤمن ظهرها وتأتينا بالمعلومات ونغدق.. اللبوة المسعورة لا تشيع... تعمل على جميع الجبهات لتقبض.. وجسارتها وفجورها تحتاجهما فمطامعك لم تتوقف عن الامتداد للمستقبل.. جعلتها تتسلل لتترقى وتكبر وتظل تحت جناحك - انها من نساء الزميرك الذى ستحتاجه لتأمين غدك.. وفى الظلام وأعمدة مملكتنا الواحدة تعلو كانت ضمانات الأمان تتجمع لنا.. والاموال على سالومة تتدفق منزل الطابق الواحد تعدد.. وأكلت التمساحة الخنفسة.. والرصيد فى البنك يكبر.. وفى رقمها السرى بالخارج وصلها الإخطار حاملا عدد الأصفار التى تم الاتفاق عليها.. لم يبق لها إلا المهمة الأخيرة.

قبل الساعة صفر.. فى الموقع الأخطر لقواتهم.. نريد آخر صور لاستعداداتهم. الضربة الأولى يجب أن تحدث لهم شللا..

خططت سالومة ونفذت حفلا للترفيه.. وباسم التسرية ورفع المعنويات أقامت عرضها الراقص فوق بحيرة صناعية من العصائر المعققة.. ادعوا ان قواتهم فى القاعدة الرئيسية سكرت بها وبرقص سالومة الذى أحييت فيه لياالى الأفعى وخلعت أقنعتها السبعة.. يدعون ان محاربيهم تساقطوا سكرًا وإعياء وأنه حدث فى القاعدة الأهم أن إنطفأ النور مرتين والتقطت الصور المطلوبة للمواقع السرية.. سالومة الجديدة التافهة ظنت أنها فعلتها وحدها.. كثيرة أشياءؤكم التى فعلتها لنا ومن بينها مؤسستكم التى إنفرطت ولكنك فارسها وفارسنا الذى يواصل ويؤمن إمتداد السلالة.

فى أوراق التحقيقات التى حاولوا أن يحاكموا فيها أساب هزيمتهم كنا نجمع الاسباب لنرعاها ونرعى رعايانا المخلصين الذين شاركوا فى صناعتها لنا وتوفير الوقود الذى أحرقهم، لما صدر الحكم بتجريمك وطردك وسقوط شركك وأصبحت ذليلا مستذلا مهانا.. وعدت تبحث كيف تعيد تشييد أركان المملكة القديمة.. ولما جمعت نساءها لتبدأ من جديد .. ولما وجدت مكانا صغيرا لقدمك وعدت تنصب أسواقهن وشراكهن وتوقع فى حباثلهن كل من يجب ألا يفلت من السيطرة.. اختلف ظاهر الدور وانتفق الباطن.. لم يعد مكانك مخفيا فى الظل.. أنت الآن فى النور وتقدر.. لما تجدد التلقيح بينك وبين امرأة يونيو أخرجنا الانخاب وشرينا فطرح الأشواك فى أرضهم لن يتوقف.

ولدنا الموهوب أنت.. تواصل صعودك وازدادت قوتك.. المرمريات الغاويات لم يعدن فى مؤسسة سرية.. خرجن إلى النور معك يعملن بجد ليحفظن مكاسبهن وتأمين استمرارك ونفوذك ويتواصل تثبيت المملكة وأنت تسقى الشجر الأكبر فتشتبك الجذور ويستحيل نزعك.. لا قوة الآن تستطيع قهرك

ظلت كامنا حتى تمكنت.. أصبح بيدك أن تخفى ذلك الصنف الملعون الذى يهددك ويهددنا.. وتظهر الغاوين والتافهين الذين يزيدون الرعوس خرقا وتحفظ كل ما أمك وشد ظهرك وأعادك من ليل التيه الذى لم يعد منه أبدا إلا مثلك.. وتجعل تعاليمنا كل يوم الأعلى.. قط لا علاقة للسياسة بالأخلاق.. الذى يريد أن يسيطر عليه إن يعتمد على الخداع والمكر... ان الاستقامة والصراحة اللتين هما فضيلتان شعبيتان تصبحان نقيضتين فى السياسة لأنهما أشد فتكا ببقائك من أقوى أعدائك تذكر جيدا ولا تنس أن أصحابك المخلصين هم أصحاب الغرائز المنحطة فاشتر كل من يبيع وادفع لتجمع المتاح منهم وتسيطر.. إنك لا تزداد صعودا إلا والدود يتكاثر والعقول تهزل.. كلما انكمشت الرعوس وفرغت ازداد حجمك ادفع للعيدان الخضراء ما يسكن عيونها الثقافة ويأخذها للبلادة.. ويجعل العنف طريقها.. اتحاد عملك ومصالحه ونشاط نساءك ومؤسستك التى عادت أقوى - رغم اختلاف الظاهر واتحاد الباطن يجعل أصابعك من كفنا.. وكفنا فى ذراعك.. لم يعد هناك من يقدر عليك.. فاعصف وابطش فقد أصبحت آمنا وستاتيك سالوماتك بأطماعك على اطباق من اطنان الذهب الذى تمتلك فانثرهن وانشرهن واملأ بعسلهن بحرك الذى لا قاع له فكلما امتلأ توطدت أركاننا وأركانك .. من مثلك اليوم يستطيع ويقدر؟!

.....

.....

نشرت الصحف فى صدر صفحاتها فى يوم لا أذكر تاريخه بالتحديد تفاصيل حادث غريب لضابط مقعد ومصاب بعجز فى ذراعه اليمنى بمسدسه القديم الذى عجز عن استخدامه فى الحرب ظل يحتفظ به مربوطا إلى وسطه.. ينام ويقوم به.. حتى

■ امرأة يونيو ■

يوم الحادث.. فى احتفال فاخر فى مناسبة هامة تقدم فى مقعده تقوده امرأة ظهر أنها زوجته بدت كأنها هرمت بالحزن اكثر مما كبرت بالعمر.. ووسط الشعارات الحماسية ودوى التصفيق الملتهب.. وفى حركة سريعة مباغطة أخرج مسدسه وأفرغ رصاصاته بذراعه العاجز فى صندرمستئول كبتير كشفت التحقيقات عن صلة قديمة بين المستول وزوجة سابقة للضابط تغسل أموال تجارتها فى الرقيق بعدد من الشركات السياحية.. أكدت التحقيقات ان صلاتها القديمة بالمستول والتي تعود إلى ما قبل هزيمة ٦٧ لم تنقطع.

الفاجرة التى أودت بحياة المستول وحدثت تحت مئات العيون بدت فيها الذراع العاجزة وكأنها تحررت من عجزها للحظة الإمساك بالمسدس وإطلاق النار.. عادت بعدها الذراع تسقط إلى جواره كما كانت.

ليس معروفا إن كانت حالة الصمت التى انتابته رفضا نهائيا للكلام أم جزءا من صدمة عصبية.. وإن كان فى حالته العامة يستغرق فى هدوء وسكينة ويغلق عينيه فى سلام.
الأوراق المكتوبة أمدتنى بها بهية زوجة الضابط ونقلتها من شرائط كان يسجل فوقها خواطره..
مازالت الشرائط تمتليء... نقلت ما يصلح للنشر.....

الصفحة

٥	الزلاال
٥٥	ست عوش
٨٩	حالة اتصال
١١٣	لحظة اتصال
١٢٥	امراة يونو

رقم الإيداع ٢٢٤١ / ٩٨

الترقيم الدولي

I. S. B. N

977 - 08 - 0709 - 5

مصر للطيران



عاماً من الخبرة والريادة

**٤٠٠ رحلة أسبوعياً إلى
٨٥ مدينة عالمية ومحلية**

اتصالات مباشرة

إلى جميع أنحاء العالم

سماء بلا حدود **مصر للطيران**

هذا الكتاب

سكينة فؤاد أدبية متميزة ومستفردة .. فهي لا تكتب قصصا ليتسلى القارئ .. ولكنها تكتب أدبا يكشف عن اختلال المجتمع الذي نعيشه اليوم .. فهي تعبر عن الشخصيات المطحونة التي تعاني من قسوة الحياة ومنع ذلك مازال عندهم أجلام يريدون تحقيقها ..

وقد وجدت سكينة فؤاد في تجسيد هذا الصراع بين أجلام هؤلاء المطحونين والواقع الذي يرفض تحقيق تلك الأجلام المشروعة على الرغم من أنهم قد دفعوا «مهر» الحياة بالعرق والتعب والشقاء .. ومع ذلك يرفض المجتمع تحقيق أجلامهم ..

وفي كل أعمال سكينة فؤاد الأدبية .. وهي «محاكمة السيدة ب» .. و«ملف قضية حب» .. و«ليلة القبض على فاطمة» .. و«دوائر الحب والرعب» .. و«فرويض الرجل» .. و«٩ ش الخيل» .. وأخيرا «أمراء يونيو» تحاول أن توقظنا على الواقع المر الذي نعيشه .. ونقول لنا إن الزوال قادم لا محالة إذا لم يسمح المجتمع بتحقيق أجلام هذه الشخصيات المطحونة التي دفعت «مهر» الحياة بالعرق والعمل والشقاء ..

نبيل أباطة